

الفصل الثامن

بين فكي الكماشة

يقع المنزل الذي يقيم فيه أعضاء فريق الممبة التابع لشركة بلاك ووتر على جانب الشارع الرئيس داخل المنطقة الخضراء، وسط حقل من أكوام القمامة وجيف الكلاب. وكانت الرائحة الكريهة المنبعثة من الجيف المتعفنة ومن المواد البلاستيكية المحترقة تزكم أنفي. وقد وُضِعَت حافلة مصفحة زرقاء اللون لسد المدخل الفرعي المؤدي إلى المنزل بوصفه شكلاً بدائياً من أشكال البوابات الأمنية. وما إن شاهدنا الشخص العراقي الذي كان يجلس مستريحاً على كرسي بلاستيكي أبيض بجانب الحافلة، حتى قفز إلى الحافلة؛ لكي يزيحها عن الطريق فاتحاً لنا المجال للدخول. وكان المتعاقدون الأمنيون التابعون لشركة تربل كانوبي الذين جاؤوا بي من المطار يسخرون من قصور الإجراءات الأمنية لدى بلاك ووتر مستشهدين بقيام الحارس العراقي فتح الطريق قبل أن يعرف من نحن، أو أن يسأل عن بطاقات هوياتنا الشخصية، أما أنا فقد رأيت ذلك نوعاً من التأدب، فما عسى ثلاثة أمريكيين ضخام الجثة في سيارة بي إم دبليو سوداء من الفئة السابعة، أن يكونوا إلا متعاقدين أمنيين؟

كانت المنازل المتلاصقة والمتقاربة على جانبي الشارع تبدو مهجورة، إلا أن الشركات الأمنية تقيم في كثير منها. دخلنا عبر بوابة مفتوحة إلى منزل محاط بسور. وتزين ساحة مدخل المنزل شجرتان شاهقتان غير مقلمتين من النخيل. أما المنزل ذو الطابقين فكان منزلاً عادياً مبنياً من اللبن، وتغطيه طبقة من الغبار. وحتى مع القذارة، والمحيط المملوء بالقمامة، فإن أسعار العقارات في بغداد تضاهي أسعار العقارات في باريس، أو لندن، أو نيويورك، وتبلغ أجرة هذا المنزل المتضعع ثمانين ألف دولار أمريكي في العام، وهي أجرة تُعدُّ مغنماً بالنسبة لبلاك ووتر؛ لأنك الآن لا تكاد تجد منزلاً مشابهاً في المنطقة الخضراء بأجرة تقل عن 12 ألف أو 15 ألفاً دولار في الشهر. تغطي أكياس الرمال نوافذ المنزل، وامتلات ساحة المنزل بصناديق الذخيرة، والبرادات، والكراسي البلاستيكية المتكسرة؛ ويمثل صوت مولد الكهرباء الذي يعمل بالديزل خلفية المشهد.

في الداخل، كان التشيليون يشاهدون البرامج التي تعرضها قناة فضائية تبث برامجها باللغة الإسبانية على شاشة تلفاز كبيرة، في حين كان المتعاقدون الأمريكيون منشغلين بحساباتهم المحمولة، وحين دخلت الغرفة، رمقوني بأعينهم ثم عادوا إلى كتابة رسائلهم الإلكترونية وتصفح مواقع الإنترنت. وكان على الجدار فوق رؤوسهم لافتة تقول «يمنع تصفح المواقع الإباحية» وهي لافتة تتضمن مفارقة غير مقصودة. وكان الرجال يدخلون ويخرجون من باب المطبخ حيث كان فيه ثلاث فتيات عراقيات دائئات التبسم يقمن بإعداد طعام مكون من شرائح غير معروفة من اللحم. وها قد وصلت إلى المكان الذي سأقيم فيه طوال الشهر المقبل، فقد أتيت إلى بغداد لملازمة فريق بلاك ووتر الأمني ومرافقتهم في دورياتهم اليومية من مقرهم إلى مطار بغداد الدولي والعكس. وسأبقى هنا أكثر شهر نوفمبر وبداية كانون الأول / ديسمبر من عام 2004. وهي المدة التي شهدت أعلى معدلات للهجمات على طريق المطار. وقد عهد إلى مدير العمليات في شركة بلاك ووتر واسمه مايك رش بمهمة القيام بضيافتي طوال مدة إقامتي هنا، غير أن مايك كان في الخارج. ولم يظهر أحد من الموجودين في المكان أي اهتمام بوجودي بينهم؛ لذلك قررت أن أتجول في المنزل وحدي.

كانت رائحة القهوة ورائحة شواء شرائح الهمبرغر المجمدة والبصل المقلي تفوح في أرجاء المنزل. يقع المطبخ قريباً من المدخل الرئيس للمنزل، وفيه يتناول أكثر الرجال هنا طعامهم وهم وقوف، ولا تتوقف آلة صنع القهوة عن العمل طوال الوقت. ويبدو أن أسراب الذباب في الداخل لا تقل عنها في الخارج، وكانت الغسالات الآلية تدور وتهمهم وهي تنظف ملابس المتعاقدين من الرمال، وكانت قوارير المياه المعدنية تملأ كل ما هو متوافر من مساحة على الرفوف، ويغطي جدار الغرفة التي تستخدم لتقديم التعليمات قبل الانطلاق خريطة كبيرة لمدينة بغداد وعليها عشرات النقاط للدلالة على مواقع الهجمات التي تحدث في المدينة.

وقعت عيناى على غرفة كان على بابها لافتة تقول: «الرجاء الإبقاء على الباب مغلقاً»، نظرت بداخلها، فرأيت رجلاً مفقول العضلات قد خالط الشيب لحيته التي تشبه عشون التيس وهو يتحدث في الهاتف: «نعم، سنرسل...». وقبل أن ينهي الجملة، لاحظ هذا الشخص وجودي في المكتب، فرفع رأسه ناظراً إليّ وقال: «كائنات من تكون، أغرب عن وجهي وأغلق الباب خلفك!».

وحين التفت راجعاً إلى البهو، قال لي أحد المتعاقدين: إن «ذاك» هو غاي غرافينو، ضابط احتياط في القوات الخاصة برتبة رقيب، ويعمل الآن قائداً للوحدة الجوية التابعة لفريق الممبة. أنشئ فريق الممبة في الأصل؛ ليكون فريقاً سريع الانتشار، ثقيل التسليح ضمن وحدة الحراسة الشخصية لبول بريمر حاكم العراق المفوض من قوات التحالف، ولكن هذا الفريق يتولى الآن مهمة نقل المتعاقدين الأمنيين والشخصيات المهمة من المنطقة الخضراء إلى مطار بغداد الدولي وبالعكس.

قليل لي أن أضع حقيبتني في واحدة من غرف النوم في الطابق الثاني من المنزل، فصعدت الدرج إلى الطابق العلوي، ورأيت صناديق مكسدة من بنادق إم-4، وصناديق ذخيرة، وأكياس رمال على جانب جدران الممر، وقد وعلقت على الجدار إرشادات توضح طريقة إخلاء المكان، وتؤوي الغرفة الواحدة ما بين ثلاثة إلى ستة أشخاص على أسرة

مفردة أو ذات طبقتين، أو من النوع القابل للطّي. والجامع المشترك في الديكور هو أنه لا شيء في هذه الغرف يمكن وصفه بالدائم، وكل شخص خزّانة وعدة حلاقة، ومجموعة من الأقراص المدمجة، والكتب، والأشياء التذكارية. ويبدو واضحاً من حسن التنظيم والترتيب، وعدم وجود أشياء مبعثرة في الغرفة، ووضع الأشياء بزاوية معينة، والمحافظة على نظافة المكان أن الانضباط العسكري لا يزول بعد انتهاء الخدمة في الجيش. ومع ذلك، انتابني شعور غريب بأنني انتقلت إلى مقر جمعية أخوية مليئة بالأسلحة الثقيلة.

توجد على سطح المنزل شرفة مغطاة بشبكة من الحبال، حيث سأمضي فيها أكثر أوقات المساء في (...) التدخين، والتحدث إلى هؤلاء الرجال طوال الشهر القادم. وتوجد على السطح أجهزة تمارين رياضية جديدة مهجورة تغطيها طبقة ثخينة من الغبار، ويبدو أن بعض تلك المعدات هي من صنع منزلي، علب قهوة مملوءة بخلطة إسمنتية، وبعضها الآخر تبدو أنها من آخر طراز من المعدات الرياضية. وقد جعلت الهجمات المتكررة وقذائف الهاون ذلك السطح مكاناً مكشوقاً وعرضة للهجوم؛ لذلك يستخدم المتقاعدون الأمنيون الصالة الرياضية الموجودة في قصر صدام حسين القديم.

يمكن مشاهدة المنظر القائم للضواحي المحيطة (مناظر غير متناهية من المباني التي تمتد إلى مسافات بعيدة من كل الجهات). وعلى مقربة من المنزل، تسير الدبابات والعربات المصفحة التي تملأ الشارع الذي يبدو كأنه محصور في وادٍ محوط بجدران إسمنتية مرتفعة، وتغطي الأسلاك الشائكة الجانب الخلفي من الجدران وذلك لمنع العراقيين من الاقتراب، وتطوف في السماء طائرات مروحية أمريكية من نوع بلاك هوك وآباتشي، مضيفة خلفية من الأصوات الميكانيكية لهذا المنظر الكثيب من ساحة الحرب.

نزلت من السطح إلى الطابق السفلي؛ كي أعرف على رفاقي الذين يقيمون في هذا المسكن، ولا يشك الناظر إلى الأشخاص الذين تجمعوا لمشاهدة برامج التلفاز في أن هذا الجمع هو تجمع قبلي. ويظهر أن هؤلاء الرجال يرتبط بعضهم ببعض برباط

مشترك تظهر معالمه في طراز الملابس التي يلبسونها، وفي طريقة كلامهم، وتصرفاتهم، وثقافتهم. والوشوم المتنوعة ذات الزوايا الحادة، والرؤوس المحلوقة، والسواعد المفتولة، واللحى القصيرة أو المقصوصة على شكل عشون التيس، هي «المظهر المشترك» بينهم جميعاً. أما نكاتهم الجوانية، وكثرة استخدامهم للمصطلحات المختصرة، والألقاب، تشير إلى أن لديهم طريقتهم الخاصة في التخاطب والاتصال. ويكتسب كل متعاقد لقباً يحل محل اسمه الحقيقي يخاطبه به رفاقه عبر جهاز اللاسلكي، وهذا اللقب عادة ما يتغير إذا ما اقترب المتعاقد شيئاً جديداً يجعله أكثر استحقاقاً لقبه الجديد. وليس للمتعاقد أن يختار لقبه بنفسه؛ بل عليه أن يقبل ما يختاره الآخرون له. فعلى سبيل المثال، استحق «شرك» و«مياغي» هذين اللقبين لمشابيهما شخصيتين ظهرتتا في فيلم سينمائي بهذين الاسمين، في حين استحق «86» و«كوغر» هذين اللقبين بسبب شيء فعلاه.

يدير شؤون المنزل شخصان هما: باري أو باز وهو جندي سابق في القوات الخاصة النيوزلندية، والآخر هو «رك» أو «بغداي» وهو ضابط شرطة سابق في الولايات المتحدة ذو شعر أشقر، هذا إلى جانب الشخص الجلف غاي غرافينو. سيتولى «مياغي» قيادة فريق الممبة الذي سارافقه في جولاته اليومية، ويوضح لي مياغي بأن الأشخاص الذين سأتعرف عليهم هم جميعاً من «الطراز الأول» في قطاع المتعاقدين الأمنيين.

يعتقد كثير من الناس أن البنادق هي أكثر شيء يستهوي أي متعاقد أمني في العراق، لكن الحقيقة هي أن أكثر ما يستهويهم هو الحواسيب المحمولة، ويمكن للمتعاقدن الأمنيين شراء حواسيب محمولة عادية بأسعار رخيصة من متجر بي إكس القريب من معسكر النصر قرب المطار، وهذه الحواسيب تعد النافذة التي تصلهم بأوطانهم وأسرهم، وتطلعهم على الأخبار خارج صندوق الرمال.

يثير الاستفسار عن لافطة «يمنع تصفح المواقع الإباحية» موجة من الضحك في الغرفة، وقد بدأت المجموعة أخيراً بإبداء الارتياح من وجودي حولهم، وراحوا يخوضون في نقاش مطوّل حول أفضل المواقع الإباحية على الإنترنت.

عرفت من أول حوار لي مع فريق بلاك ووتر أن العيش في العراق يعني في نظرهم الملل، والخوف، والصداقة العميقة المتولدة من هذه التجربة المشتركة. إلا أن أهم ما يعنيه العراق لهم هو المال، فمع دقة عقارب الساعة بعد منتصف الليل يدخل يوم جديد، وهذا يعني مهمة جديدة، وهو ما يعني أيضاً زيادة في رصيد حساب الواحد منهم بمقدار 500 إلى 600 دولار. ويسعى كثير منهم، ولا سيما المتزوجون وأرباب الأسر، إلى العمل في العراق؛ لأنهم يملكون مجموعة من المهارات المتخصصة التي تؤهلهم لكسب دخل مالي أفضل من الرواتب المتدنية التي تدفع لموظفي الحراسة والأمن في الولايات المتحدة. وتلطف الأموال التي يكسبونها هنا من معاناة وآلام البعد عن الأهل والأوطان. أما غير المتزوجين، فإن الأجر المرتفع الذي يكسبونه من هذا العمل يخفف من الشعور بالوحدة والبعد عن مجتمعهم ورفاقهم. وقد تمكن تي-بوي من تكوين علاقات صداقة غير تقليدية في أثناء إقامته في بغداد وأداء العمل الشاق الذي يدور حوله نقاشنا.

يحتفظ تي-بوي بقفص كبير أسفل الدرج يؤوي ببغاوين صغيرين ملونين من نوع الطائر الطيب. وأراني تي-بوي عشهما وقال لي: إنهما خسرا بيضة قبل تمام نمو الجنين فيها، وأنه يأمل أن تفقس البيضة الأخيرة. ولا يفهم أكثر القاطنين في هذا المنزل سر هذا الحب الجرم الذي يوليه جندي سابق في المارينز لهذه الطيور الصغيرة، كما أنهم لا يخفون تدمرهم مما يصدر عنهما من زعيق. وفي أثناء إقامتي في هذا المنزل، استمتعت بالجوانب المتناقضة في شخصية هذا الرجل ذي البنية القوية، الحليق الرأس، الذي يلبس اللون الأسود من رأسه حتى قدميه، وقمصاناً ذات شعارات مبالغ في الرجولية، ووشوماً وتماائم متنوعة على شكل الجمجمة، ويقضي وقته في ملاطفة ومحادثة هذه الطيور الرقيقة الناعمة بعد عودته من عمل مجهد في جولة المطار.

وصل مايك رش الذي يتولى منصب نائب رئيس شركة بلاك ووتر، ومنصب المدير المسؤول عن العمليات الأمنية، فأراح الآخرين من عبء الاشتغال بضيافة «المراسل الإعلامي». ومايك هو رجل طويل القامة، هادئ الطبع، يقظ، حاد الذهن. ويوحى للناس

إليه بأنه رجل كثير الأشغال والأعباء. ولا يعدم مايك نقصاً في المشكلات التي تحتاج إلى اهتمامه الفوري، ولا سيما أن مسؤولياته لا تقتصر على إدارة عمليات شركة دائمة التوسع كبلالك ووتر، بل تشمل كذلك ممارسة هذه المسؤولية وسط الفوضى العارمة في العراق، وأمّا والفرصة الوحيدة التي يخلد فيها مايك إلى الراحة فهي في الليل، على سطح المنزل الذي يسكنون فيه.

كان الليل بارداً وصاحباً على سطح المنزل (...)، جلس أعضاء الفريق، وراحوا يتحدثون ويتمازحون، وتعالّت أصوات ضحكنا بين جنبات المباني المربعة البشعة المحيطة بنا، فيما كان صوت مولد الكهرباء يهمهم بهدوء أسفل المنزل.

وفجأة سمعنا صوت انفجار خفيف تبعه انفجار قوي مدو، وكان هذا الصوت هو صوت انفجار سيارة مفخخة في مكان ما باتجاه القصر على بعد عدة مئات من الأمتار. ركز الرجال سمعهم تحسباً لسماع المزيد من الأصوات. ومن الغريب أنهم كانوا لا يسمعون أصوات انطلاق وانفجار قذائف الهاون التي لم تتوقف طوال المساء. وقال لي مايك مشيراً بيده إلى إحدى الجهات من سطح المنزل: إن أربعة متعاقدين من الغورخا قتلوا في قصف مدفعي بالأمس استهدف المخيم الذي يسكنون فيه على بعد مئة ياردة من هذا المكان، وقد وقع الهجوم وهم نيام. وموت أربعة من المتعاقدين في يوم واحد جاء في أسوأ المراحل التي سجلت أعلى معدلات للوفيات في صفوف المتعاقدين الأمنيين. ويتذكر مايك بأن أسوأ تلك المراحل سجلت ما معدله وفاة 3.24 متعاقداً في الأسبوع. ثم انطلقت أصوات صفارات الإنذار من نقطة التفتيش العسكرية القريبة من المنطقة، لكنّ الشرب، والتدخين، والحديث، والضحك، عاد كما كان دون أن يتأثر بأصوات الحرب التي تهيمن على الظلام.

يقول المتعاقدون: إن عملهم هنا ممل على الرغم من أنهم يقودون سياراتهم كل يوم على أخطر شارع في العالم. لقد أصبحت السيارات المفخخة، والطرق المغلقة، ونيران القناصة، والألغام الأرضية، والتعليمات الصباحية التي لا تنتهي، أمراً اعتيادياً في

حياتهم. وفي بعض الأحيان قد يتأخر انطلاق القافلة الأمنية بعض الوقت بعد ورود معلومات استخبارية عن احتمال وقوع هجوم في المنطقة. وفي أحيان أخرى يغلق طريق المطار حين يقوم الجيش بإزالة مخلفات تفجير سابق، وأحياناً تقوم الطائرات المروحية الصغيرة بنقل الشخصيات المهمة إلى المطار فيلزم فريق المبة مكانهم في المنزل لتأدية بعض أعمال الصيانة والتنظيف. إلا أن الفريق في أكثر الأيام يبقى جاهزاً مادياً ومتهيئاً نفسياً لهذه المهمة، وكنت أجد صعوبة في تصوّر كيف يمكن أن يكون السير على طريق طولها أربعة أميال سيراً يتميز بالحدة والسرعة بين فكي كماشة مملاً. غير أن أصدقائي الجدد قالوا لي: إنني عما قريب سأعرف الفرق بنفسي. وعند انتصاف الليل، انفض الاجتماع، وأخذت أصوات قرقعة زجاجات الويسكي تسمع حين جمع المتعاقدون أكياس القمامة متوجهين إلى الأسفل لأخذ قسط من النوم قبل شروق الشمس.

وفي صبيحة اليوم اللاحق، بدأ العمل الاعتيادي. كانت آلة صنع القهوة تعمل دون توقف، وكلما امتلأ إبريق جديد من القهوة، أفرغه المتعاقدون في فناجينهم الكبيرة. ووصلت الفتيات العراقيات إلى المنزل ليقمن بإعداد فطور مشبع بالدهون مكوناً من البطاطا المقلية، والبيض، ونوع ما من شرائح اللحم المفروم، وجلس الأذكاء من المتعاقدين وفي حجورهم حواسيبهم المحمولة التي اشتروها حديثاً، التي ترتبط بالإنترنت لاسلكياً. أما البقية، فكان عليهم التنافس على الحاسوبين الموجودين في المنزل. وانغمس المتعاقدون الذين جلسوا على الكراسي والأرائك المحشوة الموجودة في غرفة التلفاز وإلى جانبهم أكواب القهوة، في جلسة مطوّلة من المراسلة الفورية عن طريق الهوت ميل أو الياهو. وكان على المتعاقدين الذين ليس لهم أزواج أو خليلات في أمريكا أن يسددوا التزاماتهم المالية الشهرية عن طريق الإنترنت؛ لأن هذه الالتزامات لا تتوقف مهما كانت ظروف عملهم. فتح «غريز» رسالة إلكترونية وصلته حديثاً؛ ليكتشف أن زوجته طلّت جدران المنزل من الداخل باللون البني. فصاح محتجاً «ما هذا الجنون!» وتجمع الباقون حوله لمشاهدة الصور وأبدوا تعاطفهم مع رأيه بهذا الاختيار غير الموفق لهذا اللون. وتابع «غريز» تدمره قائلاً: «اللعة، اللعة، إنه لون قاتم جداً».

مع تفتت ضوء الصباح، خرج توول¹ الذي اكتسب هذا اللقب لأسباب واضحة؛ فهو الميكانيكي الموكل بمهمة فحص عربات الممبة والتثبيت من خلوها من الأعطال التي يمكن أن تتوقف بسببها في وسط الطريق لأن وقوفها سيكون كارثة، وراح يتفحص العربات ولا سيما عدم وجود ماء في الديزل؛ لأن الفريق واجه بعض المشكلات من وقت قريب. ويحرص توول على إعادة فحص العربات مرة ثانية؛ لأن تعطل واحدة من هذه العربات وسط الدرب الأيرلندي يعني وقوع كارثة لا تحمد عقباه.

في تمام الساعة التاسعة والنصف، عقد أول اجتماع يومي صباحي، وقام غاي غرافينو بدعوة الجميع إلى غرفة الاجتماعات لمناقشة بعض القضايا الإدارية والأمور المتعلقة بتدبير المنزل. هناك حاجة لشراء مرشحات للزيت، وسوف تصل قريباً دفعة جديدة من المتعاقدين. هذا بالإضافة إلى قضايا عادية أخرى تتعلق بالمنزل هي موضوع النقاش الحالي. واستمر الاجتماع خمس عشرة دقيقة، ثم عاد المتعاقدون إلى ساعة أخرى من إرسال الرسائل الإلكترونية وتصفح الإنترنت قبل العودة إلى اجتماع الساعة الحادية عشرة لسماع الإيجاز الأمني.

يقوم غريز بجمع وتحليل المعلومات الاستخباراتية المتعلقة تحديداً بعملية اليوم، ويقوم مياغي بوضع النتائج في قالب من شرائح باور بوينت لعرضها في الاجتماع. ويشير رسم بياني لإحصاءات الهجمات التي وقعت على طريق المطار إلى أن الهجمات تشهد تزايداً في الآونة الأخيرة. وقد وقع في اليومين السابقين ستة عشر حادثاً من حوادث العنف على طريق المطار. وبلغت أعداد الهجمات حداً كبيراً لدرجة أنهم توقفوا عن عرض تقارير الهجمات اليومية مكتفين بذكر المجموع الكلي لتلك الهجمات وأي تطورات جديدة في تكتيكات شنها.

وقد وقع أحدث هجوم تعرضت فيه قافلة تابعة لبلاك ووتر قبل أسبوعين على يد أربعة وعشرين عراقياً مسلحين ببنادق كلاشنكوف. وتأتي أكثر الهجمات من رصاص

[1] - والكلمة تعني بالإنجليزية العدة التي يستخدمها الحرفي أو الصناعي.

القناصة، أو من وابل من رصاص الأسلحة الخفيفة التي توجه على القافلة العابرة، غير أن أكثر الدمار يأتي من العبوات الناسفة التي تفجر من بعد، أو من السيارات المفخخة التي تصطدم بالقافلة. وبدت المواجهات كأنها لعبة القطعة والفار، حيث تعدل المقاومة من تكتيكاتها لتحتمل على الدفاعات الجديدة التي يطورها الجيش أو الشركات الأمنية. وقد علمنا في الإيجاز الصباحي أن أحدث الهجمات الانتحارية تقوم الآن على توجيه الهجوم من أحد جانبي القافلة بعد أن بدأت قوافل الجيش وقوافل المتعاقدين الأمنيين تركيز اهتمامها على السيارات التي تأتي بسرعة من خلف القافلة وعلى السيارات التي تتباطأ في المقدمة. ولكن المشكلة هي أن كثيراً من العراقيين العاديين اعتادوا الالتفاف إلى الجانب الآخر من الشارع إذا كان الجانب الذي يسرون عليه مغلقاً أو يعاني من اختناقاً في حركة المرور.

التقط غريز معلومات استخبارية من الجيش هذا الصباح تفيد بوصول تقارير تتحدث عن احتمال وقوع هجمات انتحارية هذا اليوم. وعرض مياغي شريحة «باور بوينت» تتضمن قائمة بأنواع السيارات التي يمكن استخدامها في الهجمات المفخخة، وأرقام لوحاتها؛ كي يتمكن المتعاقدون من حفظها عن ظهر قلب. وكالعادة، اختارت المقاومة سيارات يابانية قديمة صغيرة يصعب تمييزها من بين أعداد لا تحصى من السيارات التي يراها فريق الممبة كل يوم. وفي العادة، تقوم المقاومة بسرقة سيارات قديمة آسيوية الصنع في هجماتهم وذلك لسهولة اختلاطها بالسيارات الأخرى. والمفارقة في هذه الإستراتيجية هي أن سرقة السيارات المستوردة القديمة ليست الهدف المفضل للصوماليين للسيارات، ولهذا السبب يثير الإبلاغ عن سرقة سيارة قديمة ناقوس الخطر من احتمال استخدامها في هجمات مفخخة. ومن سوء حظ للمتعاقدين، وعلى الرغم من أن توافر معلومات مفصلة حول أرقام لوحات وأنواع السيارات التي يحتمل استخدامها في السيارات المفخخة هو أمر مفيد لقوات الشرطة، إلا أن المتعاقدين الأمنيين ليس لديهم وقت لمعاينة أرقام لوحة السيارات المتجهة نحوهم لمعرفة إن كانت ستفجر في وجوههم أم لا.

تتبع بلاك ووتر سياسة تقوم على استخدام قوة نارية كاسحة في حالة تعرض قوافلها لهجوم مسلح، وهي سياسة تتبعها أكثر الشركات الأمنية العاملة في العراق. ويمكن

للفريق الأمني أن يرد على الهجوم بفتح النار باتجاه القوة المهاجمة لإرغام المهاجمين على الاختباء توقياً من إصابتهم برصاص البنادق الرشاشة مدة كافية تمكن الفريق من الانسحاب وفك الاشتباك. وفي حالة تعطل إحدى عربات القافلة، فإن المتعاقدين يمكنهم الاستيلاء على سيارة عابرة للهرب بها، أو الهرب ركضاً على الأقدام، أو الاختباء في مكان محصّن والانتظار فيه ريثما تصلهم قوة إنقاذ.

بعد انتهاء الإيجاز، توجهنا إلى الخارج استعداداً لركوب العربات، وقد بهرني استعراض القوة لدى فريق الممبة وأدركت حينها السبب وراء نزوع المهاجمين في أكثر هجماتهم إلى أسلوب الهجوم الخاطف والفرار بأقصى سرعة ممكنة. وفي أكثر الحالات، تتألف القافلة التي يتولى فريق الممبة حراستها على النحو الآتي: عربة ممبة في المقدمة، تتبعها شاحنة غير مصفحة تحمل الحقائق والإمدادات، وخلفها عربة ممبة ثانية تحمل الركاب المدنيين المطلوب نقلهم من المطار أو إليه، وفي المؤخرة عربة ممبة ثالثة لحماية القافلة من الخلف. وعربة الممبة المصفحة بحديد تبلغ ثخانتها ثلاثة أرباع الإنش (2سم) هي عربة نقل للجنود مقاومة للألغام تم تحويلها إلى عربة مسلحة لخوض العمليات القتالية. ويمكن لعربات القافلة جميعاً أن تحمل من الأسلحة ما مجموعه أربعة رشاشات ثقيلة من نوع بي كي إم مثبتة وسط العربة، وتحمل العربة الخلفية اثنين منها، وقد أراني أحد الرماة كيف يمكنه بضغطة واحدة على الزناد أن يمتطر هدفه بجرام من الرصاص في ثوان معدودة. وكل واحد من رشاشات بي كي إم معبأ بالذخيرة وإلى جانبه صندوق إضافي من الذخيرة يضع بين يدي الفريق القدرة على إطلاق عدد يتراوح ما بين ألف وست مئة إلى ألفي طلقة عيار 7.62 ملم في حال التعرض لهجوم. ويحرص غيكو على اصطحاب قاذفة قتال في زيادة في الاحتياط، وقد وضعها اليوم خلف المقعد الأمامي في إحدى العربات. ويحمل بعض أعضاء الفريق فوق أكتافهم بنادق شبه آلية من نوع إتش كي بي - 5، مع العلم أن المتعاقدين التشيليين يفضلون بندقية إي كي - 47 الكلاشنكوف ذات الشريط المزدوج من الطلقات.

تضم قافلة الممبة بالإضافة إلى الأشخاص الذين يستخدمون رشاشات بي كي إم الثقيلة، ثلاثة متعاقدين على الأقل مسلحين تسليحاً جيداً في المقعد الأمامي، والمقعد

الخلفي، والنافذة الخلفية، أو على الجانب. وكل موقع في القافلة مكلف بحماية نطاق محدد. وذكر لي مياغي بأن كل متعاقد يحمل بندقية إم-4 معبأة بمخزنين للذخيرة سعة الواحد منهما ثلاثون طلقة على حزامين مزدوجين لتسهيل الحركة والالتفاف وإعادة تزويد الذخيرة إذا اقتضت الضرورة. ويحملون في السترة الروديسية ذات الجيوب المتعددة ثمانية مخازن إضافية من الرصاص وبذلك يكون في حوزة كل متعاقد ما مجموعه ثلاث مئة طلقة من عيار 5.6 ملم. كما يحمل كل واحد من أعضاء الفريق مسدساً من نوع غلوك معبأً وجاهزاً للاستعمال، إضافة إلى مخزنين إضافيين من الرصاص. وذكر لي أحد المتعاقدين: بأنه إذا وصل بنا الحال إلى استخدام المسدسات فسأكون في ورطة حقيقية. ولما كان إلقاء قنبلة يدوية هو أفضل وسيلة لفك الاشتباك مع العدو في حالة الوقوع في كمين يشارك فيه عدد كبير من أفراد المقاومة - وذلك كما حدث مع إحدى الفرق التابعة لبلاك ووتر قبل أسابيع-، فإن أعضاء الفريق يحرصون على الاحتفاظ بعدد من هذه القنابل في متناول اليد. والحقيقة أن القنابل والصواريخ غير مسموح للمتعاقدين الأمنيين استخدامها في الأصل، إلا أنه وفي ضوء عدم التزام المقاومة بشيء من ضوابط السلوك، فإن قوات المارينز تزود الفرق التابعة لبلاك ووتر بكل ما يلزم لتأمين سلامتهم. وحتى مع عدم وجود الصواريخ والقنابل والمسدسات اليدوية، فيمكن لفريق الممبة العادي أن يطلق في لحظات سبع آلاف رصاصة على أي مهاجم.

لم يكن لدي نية في حمل السلاح في أثناء الرحلة، ولكن أعضاء الفريق ألحوا عليّ وأقنعوني بأنني ما دمت راكباً معهم، فإن العدو لا يتوقف للتمييز بين الكاتب والمتعاقد. وقالوا لو وقع الفريق في الخطر، فإن ما أحمله معي من سلاح وذخيرة يمكن الاستفادة منه. وبكلمات أخرى، إنهم يريدون مني أن أكون «مخزناً احتياطياً للسلاح، فإذا وقع اشتباك مع العدو، سيكون بإمكانهم سحب مزيد من إمدادات الذخيرة من جتتي الملقاة على الأرض. وبخطا المتردد، تناولت بندقية إم-4، وسحبت الأقسام إلى الخلف، ثم تفحصت حجرة الذخيرة للتثبت من خلوها من الرصاص، ثم لقيمت مخزن الرصاص وأعدت الأقسام إلى وضعها الأصلي، وجعلت البندقية في وضعية الأمان، ووضعتها جانباً، ورحلت أضع في السترة الروديسية مزيداً من مخازن الذخيرة للبندقية والمسدس.

تحت تلك السترة كنت أرتمي بنطالاً أسود وقميصاً بنصف كم، وهو لباس لا يختلف كثيراً عن «الزي الموحد» الذي يرتديه المتعاقدون الأمنيون؛ إذ يرتدي أكثرهم سراويلات رويال روبنز 5.11 ذات اللون الحنطي أو سراويل الجينز، مع حزام حنطي للعتاد من نوع بلاك هوك ودرعاً صدرية صغيرة مثلثة الشكل تحمل رقعة قماشية كتب عليها فصيلة دم حاملها، ويرتدي بعضهم قبعات تحمل شعار بلاك ووتر. وتجد أكثرهم وأشهرهم في ذلك غريزلي فقد دق على عضلة ساعده وشماً لشعار شركة بلاك ووتر، غير أنه يصعب على المرء تمييز الشركة التي يعملون فيها دون هذه الفوارق الدقيقة، وبكل ما يرتدونه من معدات وأسلحة، يبقى مظهرهم أبعد ما يكون عن مظهر المدنيين.

ثم لبست السترة الواقية من الرصاص ماركة كيفلر، وانساب فوق رأسي بسهولة، وشدتها حول صدري بأربطة الفلكرو العريضة؛ فغطتني بإحكام كترس السلحفاة، وشعرت بالأمان مع أنني أعلم أن المقاومة العراقية استحدثت أساليب جديدة في التعامل مع الدروع الواقية من الرصاص وذلك بالتصويب نحو الرأس أو شرايين الفخذ. وأصبحت اشعر بصدري يضغط على ألواح السيراميك الصلبة في السترة الواقية من الرصاص حين وضعت السترة الروديسية فوق السترة الواقية من الرصاص. ثم وضعت خوذة من نوع كيفلر وثبتها حول رأسي بحزام يلتف حول الذقن، ثم لبست القفازات وواقيات الركبتين. كان منظر فريق الممبة لائقاً جداً حتى مع الخوذات وواقيات الركب، والتقطت لهم صورة تذكارية وكانوا في غاية الروعة أمام عدسة الكاميرا. ومع قناعتي التامة بأنني بكل ما ألبسه من جهاز حربي وعتاد أبدؤ أقرب إلى الغباوة مني إلى الرجولة، أو ككاتب يمثل دور المتعاقد الأمني - إلا أنني صعدت إلى عربة الممبة التي تتقدم القافلة وجلست في موقعي ومعني آلة التصوير وحاسوبي اليدوي، وأبقيت على بندقيتي الرشاشة من نوع إم-4 إلى جانبي تحسباً لأي خطر، وكانت أمنيته أن اقضي كل وقتي في تسجيل الملاحظات الصحيحة والتقاط الصور الصادقة.

وصلنا نبأ يفيد بأن الجيش الأمريكي قد قام بإغلاق طريق مطار بغداد الدولي مرة أخرى بسبب انفجار سيارة مفخخة، وهذه المرة كان الهدف قافلة عسكرية مؤلفة من عربات مصفحة. لذلك، اضطررنا إلى أن نسلك طريقاً بديلاً يمر عبر شوارع المدينة

المزدحمة؛ لكي نصل إلى المطار وننقل مجموعة جديدة من المتعاقدين الأمنيين الذين وصلوا إلى مطار بغداد. وسيجعل الزحام في الشوارع المكتظة الرحلة أكثر صعوبة وأشد خطورة، غير أن المتعاقدين تعودوا على مثل هذه التغييرات التي تطرأ على خططهم في اللحظة الأخيرة قبل انطلاقهم.

بدأت أصوات محركات عربات القافلة التي تعمل بالديزل تزمجر كأنها مجموعة من الخيول المصابة بداء السل، ثم انطلقت عربات المبة كأنها قطار من الفيلة الخرقاء، تسير بخطا متباطئة إلى الأمام، وكانت عجلاؤها تثير الغبار وهي متوجهة إلى الشارع الرئيس. سرنا باتجاه «جسر بروكلين» وهو نقطة الخروج من المنطقة الخضراء إلى المدينة مروراً بجامعة بغداد. وبعد توقف قصير وإلقاء التحية على جنود المارينز والغورخا¹ الذين يحرسون البوابة غادرنا المنطقة الخضراء، ودخلنا في «المنطقة الحمراء». وفي الحال تبدل المزاج؛ فتوقف المزاح، وذابت الفردية في الفريق لتكوّن شبكة متصلة من الحدة. كل شخص موكل بمهمة أنيطت إليه - السائق، القناص الأمامي، القناص الخلفي. وكل شخص موكل بمراقبة نطاقه - المقدمة والمؤخرة، والميمنة، والميسرة. وتحولت الطبيعة السهلة والمنفتحة للمتعاقدن إلى أقنعة من التركيز الحاد.

ولو سلطنا الدرب الآيرلندي [طريق المطار]، لكانت السرعة الكبيرة التي تسير بها القافلة على الطريق السريع سبباً في جعل استهداف القافلة بنيران القناصة أو الأسلحة الخفيفة أمراً صعب المنال، ولا شك أن فرص إصابة الهدف الذي يسير ببطء تكون أكبر من الهدف الذي يتحرك بسرعة. وفي هذه الجولة سيزيد المتعاقدون من تركيزهم وانتباههم في مراقبة كل شيء مريب يظهر خلف كل شجرة أو نافذة، بدلاً من مراقبة السيارات القديمة يابانية الصنع التي تسير في الشارع. ومع أن الازدحام المروري في شوارع المدينة يبطئ من سرعة تحرك القافلة، إلا أنها تضيف طبقة جديدة من الحماية من السيارات المفخخة، دون استهدافها بنيران القناصة أو الأسلحة الخفيفة؛ لأن أي

1- وهم جنود نيباليون من أصل هندي يخدمون في الجيش البريطاني، وقد استخدمهم الإنجليز منذ أكثر من مئتي عام، ويشتهرون ببسالتهن في ساحة المعركة. ومعنى هذه الكلمة في أصلها السنسكريتي «حراس البقر» وفيها قدح وتعميرض بالديانة التي ينتمي إليها هؤلاء الجنود.

مهاجم يريد مهاجمة القافلة عليه أن يشق طريقه وسط جدر متراسمة من السيارات المزدحمة قبل أن يقترب من القافلة ويفجر سيارته.

يدرك أكثر السائقين العراقيين أن عليهم الإبقاء على مسافة طويلة بينهم وبين القافلة، ولكن عندما حاول أحدهم الاقتراب من القافلة لكي يتجاوزنا، سمعنا صوت انطلاق رشقة من الرصاص، تبعها انبعاث رائحة مادة الكوردايت في الهواء؛ وذلك لأنّ تي-بوي أطلق طلقة إنذار إليه من رشاش بي كي إم، ثم سمعنا صوتاً عبر جهاز اللاسلكي يحذرنا من أن حركة السير ستكون سيئة أمامنا. وكان هدير صوت محركات الممبة يتقلب بين الهدير والأنين مع التباطؤ والتسارع في الحركة، وأخيراً توقفنا عن الحركة نهائياً.

ثم جاءنا نبأ عبر اللاسلكي يفيد بأن «الجيش الكبير» قد أغلق الطريق. فتساءلنا هل كان الإغلاق بسبب عملية عسكرية للجيش الأمريكي؟ أم بسبب سيارة مفخخة؟ فردّ غيكو متذمراً: «إننا لا ندري. نحن لا نكلّم الجيش الكبير، وإنما نقوم بما يطلبونه منا».

على الرغم من الإبقاء على مسافة بين القافلة وبين السيارات التي في الخلف والمقدمة، إلا أن السيارات العراقية في الاتجاه المعاكس بدأت تتجاوزنا، وبعضهم كان يرمقنا بنظرات تتم على الملل، وبعضهم الآخر تحس في نظراتهم كراهية حادة. وراح أحدهم يحاكي بيديه وصوته انفجار قنبلة «بوووم» ثم نظر إلينا بابتسامة شريرة مبتعداً عنا بسيارته. وتجمع الأولاد الصغار حول أعمدة الكهرباء وراحوا يحملقون بنا، وكان رجل آخر يمشي مسرعاً نحونا من زقاق قريب وهو يحمل شيئاً تحت معطفه الداكن. لقد أصبحنا هدفاً واضحاً محصوراً وسط بحر من اللظى المتوهج والسيارات المتوقفة، وكنا مكشوفين من جميع الجهات، وعرضة لهجوم معاد في أي لحظة، وليس أمامنا أي مخرج؛ لأن ازدحام السيارات يحول بيننا وبين الانسحاب من المكان. وبدأت أسائل نفسي في لحظة من اللحظات النادرة التي يمر بها الإنسان في محاسبة الذات، مشككاً في صحة اختياري لهذه المهنة التي أمارسها. وبدأنا نعزي أنفسنا بتذكير الواحد منا للآخر بصعوبة التحرك بسيارة مفخخة وسط زحمة السير، غير أن الشيء المعلوم الذي يعرفه الجميع هو السهولة التي يمكن لعناصر المقاومة أن تؤلف بها مجموعة لتنفيذ كمين سريع حين تشاهد هدفاً توقف في موقع مكشوف، وتذكرت هذه اللحظة بالذات بعد عدة أسابيع

حين قرأت عن تعرض فريق أدنبرة لتقدير المخاطر لهجوم «سمك القرش»- وهذه العبارة تعني في قاموس الأمن الهجوم المباغت السريع في الكر والفر- حين كان الفريق ينتظر فراغ الجيش الأمريكي من تأمين الطريق على مسافة تقل عن مئتي ياردة من المكان الذي حصرنا فيه.

رفعت البنادق والرشاشات جميعها وكانت في وضع الاستعداد منذ اللحظة التي غادرنا فيها المنطقة الخضراء، غير أن المتعاقدين الآن يتخذون موقفاً دفاعياً واضعين أصابعهم قرب الزناد، ومركزين أنظارهم عبر المناظير المقربة، أما أنا فرحت أجول ببصري عبر النافذة متأملاً المشهد المضغوط من السيارات المزدحمة، والمارة الذين ينظرون إلينا نظرات فضولية، والمباني ذات السطوح المربعة، وأطباق الفضائيات. وفي هذا الوضع المحفوف بالمخاطر، كان لدى كل متعاقد وفرة لا يمكن حصرها من الأخطار المحتملة التي يمكن أن تأتي من المنطقة المكلف بمراقبتها. وارتفعت وتيرة الاتصال بين عربات القافلة، وبدأ يظهر على الأصوات أثر الانفعال والشدة العصبية.

«اللجنة! ما الذي يحدث هنا» ١٩.

«لا أعرف، لقد أمر الجيش الكبير بإغلاق الطريق».

«لنخرج من هنا فوراً»

«لا، انتظر قليلاً لعل الأزمة تزول ويفتح الطريق».

ويستمر النقاش عدة دقائق إلى أن تدخل مياغي قائد الفريق معلناً كلمة الفصل. فقال، بنبرة منتعشة: إن الطائرات المروحية الصغيرة ستتولى مهمة نقل المتعاقدين الجدد من المطار اليوم.

خرج أعضاء الفريق من عربات الممبة وبدؤوا بالسير بين السيارات المتوقفة، وهم يطرقون بأطراف بنادقهم نوافذ السيارات، فاقتنع سائقو السيارات بسهولة أن من مصلحتهم فسخ المجال أمام عربات الممبة للالتفاف والعودة. وتوجه اثنان إلى الجهة المعاكسة من الشارع لوقف السيارات القادمة، ورجعت القافلة إلى الخلف ثم استدارت وقطعت الجزيرة الإسمنتية التي تفصل بين اتجاهي الشارع للعودة من حيث أتت.

بعد أن عدنا إلى المنطقة الخضراء، عادت السلامة والأمان، وبدأ أعضاء الفريق يذكرون بعضهم بالهجمات المحتملة التي كانت تحوم حولنا في تلك اللحظات العصيبة التي حصرنا فيها وسط الزحام. وحين بدأنا بتفريغ متاعنا من العربات، أبدى بعضهم تدمرهم من الرحلة، أما البقية فلم يبالوا بما حدث. وقد تبين لي في الشهر الذي أمضيته برفقة فريق الممبة أن مهمة الدورية التي خرجنا فيها اليوم كانت أكثر من عادية. ففي بعض الأحيان يغلق الطريق بسبب انفجار سيارة مفخخة، وفي أيام أخرى قد تبرز أنواع كثيرة من المشكلات التي تؤدي إلى إحباط المهمة. ويمكنني التنبؤ استناداً إلى المدة المحدودة التي قضيتها مع الفريق بأن ثلاثة أرباع الدوريات المدرجة في جدول مهمات فريق الممبة تذهب فعلاً إلى المطار دون بأن تتعرض لتأخير أو إلغاء بسبب لا يتصل بهجمات مسلحة. ومع أن أكثر العاملين يستمتعون بيوم عطلة من الوظيفة، إلا أن دورية المطار في واقع الأمر تكسر الرتابة المملة للجلوس في البيت. وأظهر بعض المتعاقدين تدمرهم من الملل، وراحوا يبحثون عن شيء يشغلون به بقية اليوم.

في تلك الليلة، تجمع أعضاء الفريق لقضاء ليلة أخرى في الشرب والتدخين على سطح المنزل. وفي هذه الليلة كانت المنطقة الخضراء هادئة نسبياً، وكانت أصوات الطائرات المروحية تسمع من مسافة قريبة، وبالطبع لم تتوقف أصوات صفارات الإنذار، غير أن الضجيج لا يرتفع هنا عن المستوى الذي تجده في مدينة نيويورك.

كنت أنا ومياغي جالسين في جهة واحدة، فقربت كرسيي منه، وبدأت أطرح عليه أسئلة كثيرة عن حياته. وربما كان مياغي الذي تجاوز الأربعين من العمر، هو أقصر، وأهدأ، وألطف أعضاء الفريق. وبعد مرافقته أكثر من شهر يمكنني القول: إن هذا الرجل يستحيل استنزاه، ولعل السبب يعود إلى نشأته في ضاحية إيكو بارك، وهي ضاحية فقيرة من ضواحي مدينة لوس أنجلوس، تنتشر فيها الجريمة المنظمة والعصابات المسلحة.

عمل مياغي سبعة عشر عاماً في قسم الشرطة السرية وقسم الدوريات الأمنية التابعين لمديرية شرطة لوس أنجلوس. وبفضل الدخل الإضافي الذي تجلبه زوجته، تمكن الاثنان من شراء منزل جميل في بلدة سيمي فالي التي تبعد مسيرة ساعة ونصف الساعة

بالسيارة عن مكان عمله. وبعد خدمة دامت سبعة عشر عاماً، كان ميافي يتقاضى مرتباً بقيمة 1400 دولار كل أسبوعين، فترك العمل في جهاز الشرطة سعياً وراء دخل أفضل في المجال الأمني لدى شركة «فدرل إكسبرس». وذات مرة، اتصل به شرطي كان يعمل تحت إمرته في السابق، وطلب إليه أن يكتب رقم هاتف لشركة دينكوب، ففعل ميافي ذلك دون تردد: «أذكر أنه في أواخر التسعينيات، كان أكثر المبرزين من أفراد الأمن يذهبون للعمل في مهمات حفظ السلام سنة أو سنتين مع شركة دينكوب. ولما كان الوصف الوظيفي للعمل متعاقداً أمنياً خاصاً، فقد وجد مخرجاً قانونياً للإعفاء من الضريبة؛ إذ كانت دينكوب تدفع الرواتب من حسابات مصرفية من خارج الولايات المتحدة؛ لذلك لم يكن يصلك نموذج دفع الضرائب. فراتبني معفى من الضرائب، ويمكنك تحصيل مئة ألف دولار في العام خالية من الضرائب».

تقدم ميافي للعمل لدى شركة دينكوب في بداية عام 2003: «في ذلك الوقت، كان يدفع للمتعاقد الذي يعمل في تيمور الشرقية 105 آلاف دولار في العام، وفي البوسنة قرابة 90 ألف، وكوسوفو 89 ألف. عملت في كوسوفو عاماً واحداً، وتقدمت بطلب للعمل لدى بلاك ووتر في تشرين الثاني / نوفمبر من عام 2003، وفي منتصف يناير من عام 2004 تلقيت رسالة من بلاك ووتر تعرض علي العمل بأجر مقداره ست مئة دولار في اليوم. كانت الشركة تبحث عن أشخاص مدربين؛ لكي يعملوا في فريق الحراسة الشخصية لبول بريمر حاكم العراق المؤقت. وكان عدد من الأشخاص الذين تركوا العمل في دينكوب في كانون الأول / ديسمبر من عام 2003 ليلتحقوا بشركة بلاك ووتر قد أرسلوا إلينا رسالة عبر البريد الإلكتروني ونحن في كوسوفو قالوا لنا فيها: إن بلاك ووتر هي الصفقة الحقيقية».

«كانت الدورة التدريبية التي التحقت بها دورة عادية تستغرق عشرة أيام من التدريب. غير أن دورتنا كانت مكثفة ستة أيام، ولكننا تقاضينا أجراً عن عشرة أيام. قالوا لنا: إنها دورة متقدمة، وإننا جميعاً لدينا المعلومات الأساسية. وفي أثناء اليومين الأولين، رسب عشرة أشخاص. لقد بدأنا بسبعة وأربعين شخصاً وانتهينا بسبعة وثلاثين. وكان من بين الراسبين شخص لم يستطع أداء تمرين واحد لعضلات المعدة، وهو الآن يعمل في وزارة

الخارجية ضمن الحراسة الدبلوماسية. وفي منتصف الأسبوع، قاموا بتوزيع الوظائف، وقسم المشاركون في الدورة إلى فئتين، فئة الحاصلين على أعلى درجات التراخيص الأمنية التي تخولهم الاطلاع على أسرار الدولة، والفئة الثانية هم البقية. كان كلُّ منَّا يرغب في العمل في فريق حراسة بريمر. ثم شاعت نكتة تقول: إن عدم اختيار الشخص للعمل في فريق بريمر دليل على أنه ليس على درجة من الحسن والوسامة».

ومن المؤكد أن لا أحد من الأشخاص الجالسين على سطح المنزل كان على درجة من الحسن والجمال؛ لأنهم جميعاً كلفوا بالعمل في دوريات «الدرب الآيرلندي» بدلاً من حراسة بريمر. وربما كان باز أقربهم جميعاً إلى هيئة «الفتى الوسيم»، نظراً لكونه الشخص الوحيد في فريق الممبة الذي يتمتع بشهرة بسبب مشاركته في البرامج الدرامية التي تقوم على الحياة الواقعية. فقبل عدة سنوات، كان باز نجماً في برنامج يشابه البرنامج الأمريكي «سيرفايفر» (أي الناجي الوحيد) الذي جرى تصويره في جزر فيجي ليعرض على الجمهور النيوزلندي. ويستمتع بقية الفريق في مهازحته بشأن تلك التجربة. وواضح أن ذلك كان بدافع من الغيرة. وتبين لي في تلك الليلة أن باز لم ينل شهرته في ذلك البرنامج لكونه الشخص الوحيد الذين استطاع البقاء من بين المتنافسين الذين دخلوا للعيش في الغابة، بل لأنه كان يمضي وقته خارج مَدَدِ التصوير في معايشة مضيعة البرنامج المشهورة ذات الجمال الأخاذ.

دخلنا في ساعة متأخرة من الليل وذهب اثنان من المتعاقدين إلى النوم حين قرَّب باز كرسيه إلى الجانب الذي أجلس فيه وبدأ يروي لي بقية قصته. وتحدث لي بالتفصيل عن أخوته التوائم، توءمين من الإخوة أعمارهما أربع عشرة سنة، ومثلهما من الأخوات عمرهما اثنتا عشرة سنة. ويعشق باز التحدث عنهم، وترى البريق في عينيه وهو يعدد إنجازاتهم.

وأسر لي بأنه قد قرر الزواج من صديقته التي يعرفها منذ وقت طويل حين يعود إلى الوطن. فقد وقفت إلى جانبه، وعاشت معه همومه، وتحملت نمط الحياة غير العادي في غيابها عنها مدة طويلة من الزمن.

حين كان باز في نيوزلندة يعمل ضمن قوات ساس، كان الفريق الذي يعمل فيه مكلفاً بتعقب مجموعة من العصابات في تيمور الشرقية اشتهروا بتقطيع آذان عمال الإغاثة المختطفين لديهم. وحين خرج من الخدمة، عمل في الحراسة الشخصية، وكان عملاؤه من النجوم المشاهير إضافة إلى سلطان بروناني. وبعد أن سرد أهم معالم حياته ومهنته، اقترب باز مني أكثر. ولاحظت تغيراً واضحاً في جو الحوار بيننا وشعرت بثقل من الذكريات يتنزل على فكره. وبصوت متوتر، قال لي: «كان أبي شديداً عليّ، كان يعمل سائس خيول، رجلاً قصيراً جداً لا يكاد يقف إلى هذا الارتفاع». وضع باز يده على ارتفاع أربعة أقدام (1.21 متراً) من الأرض وتابع حديثه. «لم يكن باستطاعتي مهما فعلت أن أرضيه. ثم إنه تعرض لحادث سير أصيب على إثره بشلل أفعده وألزمه الكرسي المتحرك... يا إلهي كم كان قاسياً. لقد كنت أعمل ضمن حرس سلطان بروناني في ذلك الوقت، وكان علي أن أرافق السلطان في سفره، وحين وصلني نبأ مرض أبي، لم يكن بإمكانني زيارته في الوقت المناسب. فأخذت ثاني رحلة بالطائرة إلى الوطن، ولكنه توفي وأنا في طريقي إليه. وحين ذهب لجمع متاعه وأشياءه، وجدت فيها كل ما يتصل بخدمتي في قوات ساس، أي كل ما ورد في الصحف عني. لقد كان يحتفظ بكل شيء فعلته». ثم توقف باز وأشاح بوجهه برهة من الوقت، ولم يظهر في ذلك الظلام سوى الوهج الأحمر المنبعث من طرف سيجاره. وحين عاد لينظر إليّ، طرح عليّ سؤالاً مؤلماً لأملك له إجابة: «لماذا لم يكن يخبرني بذلك؟».

ومع أن جلسات السمر على سطح المنزل هي جزء مهم من الحياة اليومية للمتقاعدين، إلا أنهم منضبطون في شربهم. سألتني مايك إن كنت أرغب في مرافقته في اليوم اللاحق في جولة لخوض غمار البيروقراطية في القصر. وذكر الحوار مايك بالاعتذار إليّ؛ لأن وزارة الخارجية الأمريكية سحبت التصريح الذي يسمح لي بمرافقة فريق بلاك ووتر الذي يتولى حراسة الموظفين التابعين لوزارة الخارجية في الحلة: «إن فرانك، الضابط الإقليمي للأمن، يلاحقنا في كل صغيرة وكبيرة. إنه يدعي بأنني التقطت صورة لشخص من وزارة الخارجية وقتلت: إنه من المرتزقة». وهز مايك كتفيه ورأسه، في دلالة واضحة على دهشته من هذه التهمة؛ فأصدروا عقوبة بمنع أي كاتب يرغب في قضاء وقت هناك،

ولكن ما أثار غرابتي هو منعهم مايك من الذهاب إلى الحلة. وبدا واضحاً أن مايك يحارب على جبهتين: الحكومة من جهة والمقاومة العراقية من الجهة الأخرى.

في اليوم اللاحق توجهت برفقة مايك للحصول على تصريح رسمي يسمح لي بالدخول إلى القواعد العسكرية والمنشآت الحكومية، وقد قامت وزارة الدفاع الأمريكية بتغيير شكل تلك البطاقات مرة أخرى، لذلك أراد مايك أن يستبدل ببطاقته القديمة بطاقة جديدة. وبالأخذ في الحسبان أن مايك يحمل أعلى درجات السماح بالاطلاع على أسرار الدولة، ويتولى إدارة أكبر الشركات الأمنية في العراق - الشركة التي تتولى توفير الأمن والحماية لبول بريمر والمكاتب التابعة لوزارة الخارجية - فإن المرء يتوقع أن يكون إصدار البطاقة الجديدة إجراءً فورياً تلقائياً. وقد سبق لمايك أن تقدم بطلب لتجديد تصريحه حين كان في الولايات المتحدة ولكنه لم يتلق أي شيء منذ ذلك الوقت. ويعتقد مايك أن السبب هو «قاعدة العشرين دقيقة» - ويعني بذلك أن عليه أن يراجع الوزارة كل عشرين دقيقة لمعرفة الأنظمة والتعليمات الجديدة التي أصبحت سارية المفعول - التي ربّما ألغت طلبه الأول. وعلى الرغم من أنه خصص يوماً كاملاً للتنقل بين المكاتب التي اتخذت من قصر صدام حسين مقراً لها، إلا أنه لا يبدو متفائلاً بشأن تجديد التصريح في هذا اليوم، وهو أقل تفاؤلاً بشأن حصولي أنا على بطاقة مشابهة. لقد حاول مايك الاستعانة بأصدقائه ومعارفه في المستويات الحكومية الدنيا أولاً، وقال لي: إننا لن نذهب إلى رئيس الجهاز الأمني إلا بعد تخفّق كل المحاولات؛ لأن العلاقة بين الاثنين ليست في الجانب الودي، ويظن مايك أن المسؤول الأمني لن يساعده في الحصول على التصريح حتى وإن كان يقدر على ذلك.

في الوقت الذي نجد فيه أن أكثر المجتمع المحاط بالأسوار في المنطقة الخضراء قد تقمص الشخصية الأمريكية التجارية الوظيفية على نحو صارم، إلا أن المركز الرئيس لعمليات الحكومة الأمريكية «القصر» بقي يحتفظ، ومن غير شعور بالذنب، بملامح الشخصية العراقية في البذخ والبهرجة. في الداخل، متاهة طويلة من الغرف الكبيرة المقببة والمداخل المقوسة، والأسقف المزخرفة التي تتابع مع كل خطوة إلى الداخل. وفي إحدى القاعات الكبيرة الفخمة تحديداً، أقام الجيش شبكة متصلة من الحجيرات الخشبية المربعة الصغيرة غير المسقوفة. وهو قرار معماري مثير للدهشة، تحول بموجبه

مشهد أنيق من مشاهد ألف ليلة وليلة إلى خص دجاج. وذكّرني هذا المنظر بالحكمة اليونانية القديمة التي تقول: إن العمارة الرفيعة تُلهم النفس أفكاراً رفيعة.

سرنا عبر هذه المكاتب متخطين جنوداً، وطيارين، وموظفين حكوميين، منهمكين بإرسال الرسائل الإلكترونية، وتقليب الأوراق والوثائق قبل أن نعثر على مربع خشبي عرضه ثلاثة أقدام يعمل فيه شخص سمع مايك أنه ساعد آخرين من رفاقه في تجديد تصاريحهم. كان هذا الضابط ذو الأسنان الكبيرة الذي يعمل في سلاح الجو، لطيفاً وودياً ولكنه عديم الفائدة. وأوضح لنا أن قاعدة التسعين يوماً، وهي مدة انتداب موظفي الجيش في العراق، التي يتبعها الجيش تعني أن «الثلاثين يوماً الأولى تمضيها في التعرف إلى ما يدور حولك وإصلاح ما أفسده من كان قبلك. ثم تمضي شهراً واحداً في العمل الجيد، ومع دخول الشهر الثالث تتكون لديك قناعة بأن ما ستبذره من عمل لن يكون له فرصة في الاكتمال، لذلك ستتركه مكمّواً للشخص الذي سيحل محلك في الشهور الثلاثة القادمة. وقد بقي لهذا الضابط ثلاثة أسابيع في بغداد، وهو يتهيأ الآن للخروج من حجيرته الخشبية.

وبعد أن باءت محاولتنا بالإخفاق، قررنا التوجه إلى مسؤول وزارة الخارجية. فوجدناه في مكتب رث خلف باب واهن، وخلفه خزانة مغلقة فيها بندقية إم - 16، ويبدو أن هذا الرجل ينظر إلى حياته ووظيفته بقدر قليل من التفاؤل. فعرض على مايك عرضاً مبتذلاً بأن يصدر له تصريحاً أمنياً محدوداً وذلك على الرغم من علمه أن أكثر الأعمال التي يقوم بها مايك تتعلق بأشخاص يحتلون وظائف عليا، ويعملون في مواقع محاطة بإجراءات أمنية مشددة. وقال: إن البديل الوحيد هو أن نتجاوزَه إلى رئيسه الأعلى، وهذا الرئيس هو الشخص النكد الذي تحدث عنه مارك آنفاً؛ فوافق مايك على مضمض.

دخلنا إلى المسؤول عن الأمن واسمه فرانك، وهو رجل مسن ذو شعر فضي، يلبس الجينز، ويحمل مسدس غلوك على خصره. قال لنا، وهو يقلب بعض الأوراق على مكتبه: إنه مشغول جداً في إنجاز بعض الأمور؛ لأن مهمته ستنتهي في هذا الأسبوع. وقال بنبرة الشخص المتعالي المثلث بإنجاز عدد كبير من الأمور المهمة: «لقد كانت الأيام القليلة الماضية صعبة للغاية»، وذكر مايك بالستة عشر هجوماً التي وقعت في الثماني والأربعين ساعة الماضية التي كانت على لسان كل شخص، وكأن مايك ليس لديه علم بها.

وفي الوقت الذي كان فيه فرانك منغمساً في التحدث عن مدى أهميته وكثرة أشغاله، استرعت انتباهي الطريقة الفظة التي ردت بها سكرتيرته على فتاة أمريكية ذات شعر أسود بقولها: «أتريدين ثلاثة عشر تصريحاً؟ إنني لا أستطيع أن أمنحك ثلاثة عشر تصريحاً. لقد سبق أن حصلت على تسعة تصاريح من وقت قريب. فلماذا تريدون المزيد؟» فردت الفتاة الأمريكية التي ظهرت عليها علامات الانزعاج بصوت خافت إجابةً على سؤالها: «نظراً إلى حساسية المهمة التي نقوم بها، فإنني لا أستطيع مناقشة هذا الموضوع». ثم قالت للسكرتيرة: إنها تريد المزيد من التصاريح للمترجمين العراقيين المقيمين في فندق الرشيد (وهو محطة تستخدمها الاستخبارات الأمريكية). ويبدو أن كل الإشارات والتلميحات لم تفلح في إقناع السكرتيرة، وأصرت المرأة على مقابلة الشخص المسؤول عنها. توجه فرانك إلى غرفة صغيرة مجاورة لمقابلة المرأة، ولكنه عاد بسرعة ليطلب من سكرتيرته الشكسة إصدار التصاريح المطلوبة، ثم عاد إلى مايك معتذراً له عن عدم استطاعته المساعدة في طلبه قائلاً: «ليس في استطاعتي ما يمكن فعله لك». ويبدو أن حصول العراقيين على تصاريح أمنية أسهل من حصول مايك عليها.

وبالعودة إلى منزل فريق بلاك ووتر، قال لي غاي غرافينو: إنه كان الأولي بمايك أن يأخذني لمقابلة لورانس وليس لـ «لاري» بيتر حين كنا في القصر. كان بيتر يعمل بصفة منسق الشركات الأمنية لدى سلطة التحالف المؤقتة، ولكن بعد حل تلك السلطة، لجأ لورنس إلى الشركات الأمنية طالباً منها تمويل بقاء عمله على صورة مؤسسة خاصة. وبوصفه المدير الإقليمي لجمعية الشركات الأمنية في العراق، فإنه يضطلع بوضع إجراءات وأصول نموذجية موحدة، وتحسين سبل الاتصال مع المتعاقدين الأمنيين العاملين في العراق. وكان بيتر يرفض مقابلي رفضاً باتاً؛ لذلك رأيت أن مرافقة شخص من بلاك ووتر للقاء هذا الرجل ربما يلطف من الأجواء، وقد استشعرت من حديثي مع غاي أن بيتر ربما يكون عصبي المزاج بعض الشيء، غير أنني حين قابلته بعد بضعة أيام وجدت أن عبارة عصبي المزاج بعض الشيء قاصرة عن وصف هذا الرجل.

لقد وجدته رجلاً قصير القامة، ألبغ، ويريد من كل الناس أن يعرفوا أنه خدم في فريق سيل - 6، مع أن عدداً من الذين خدموا في ذلك الفريق يعرفونه، ويؤكدون أنه كان

يعمل محلل استخبارات، ولم يكن في الخدمة الفعلية للفريق. وحين ذهبت إلى مقابلته، تهت بين مكاتب مكتظة محشورة تجلس فيها مجموعات من الموظفين المدنيين متوسطي العمر كانوا يعاينون الوثائق ويضغطون بأصابعهم على لوحات مفاتيح أجهزة الحاسوب التي أمامهم، قبل أن أعثر على المكتب الرئيس لجمعية الشركات الأمنية الخاصة في العراق الذي كان مندثراً في أعماق القصر. وكان يجلس في هذا الصندوق الخشبي الأبيض الصغير لورنس بيتر ومعه رجلان متوسطان في العمر.

لم تكن لدى بيتر رغبة في مقابلتي أو التحدث إلي، وقد صرّح هو نفسه بذلك عند رؤيتي، وقال لي: إن السبب الوحيد وراء قبوله مقابلتي هو أن الشركات الأمنية طلبت منه ذلك. وبعد بضع دقائق من إلقاء التعليمات تولدت لدي فكرة بأنه لا يحب الصحافيين، لذلك لم أستغرب من أن أبرز لوحة تزيّن جدار مكتبه هي ملصق بوستر يعود إلى عهد الحرب العالمية الثانية يقول «ما رأيك بفنجان لذيذ من: آخرس قطع الله لسانك»⁵.

كان الانقلاب الأخير الذي قام به بيتر في مجال العلاقات العامة لمصلحة الشركات الأمنية الخاصة هو دعوة الصحافية تيش دوركن التي كانت تصر على أنها بصدد كتابة تقرير إعلامي عن المتعاقدين الأمنيين وصناعة الأمن الخاص. وقد قام بيتر بتعريفها على أبرز اللاعبين الرئيسيين في الحقل، ولكنها حوّلت تركيز عدستها الإعلامية على متعاقد أممي لامع يحب البهرجة، وكانت النتيجة هي نشر أكثر التحقيقات الصحافية إضراراً بسمعة الشركات الأمنية الخاصة. وعرض التحقيق الصحافي الذي نشرته مجلة رولينغ ستون تحت عنوان «مرتزقة الهيفي ميتال»¹ جوانب شخصية «وولف وايز» وهو كما يصف نفسه بأنه نجم من نجوم موسيقا الروك، ومؤمن عادي إلى الدين المسيحي من جديد، وجندي سابق في قوات المارينز. وتصوره دوركين في تقريرها بأنه جندي مرتزق حر يهوى بناء العضلات، وابتلاع حبوب الستيرويد، وإطلاق النار. لقي وولف حتفه بعد نشر المقالة برصاصة من رصاص المقاومة العراقية، وجاء موته بعد أن ترسخت الصورة التي عرضتها دوركين عنه في أذهان العامة. وساعدت مقالة مجلة رولينغ ستون في

1- المعنى الحرفي لعبارة هيفي ميتال هي الفلزّات أو المعادن الثقيلة، لكن هذه العبارة أصبحت تستخدم للدلالة على موسيقا الروك الصاخبة ذات الإيقاع الشديد، التي تستخدم فيها عبارات العنف والصور الخيالية.

تشكيل انطباع متصوّر عن المتعاقدين الأمنيين بأنهم أشخاص متعطشون للدماء، مفتونون بالبنادق، مهووسون بالمسيح، منتشون بموسيقا الروك الصاخبة وحبوب الستيرويد، وقتل العراقيين الأبرياء.

لهذا السبب ليس غريباً أن يعتقد لورنس بيتر بأنني - بصفتي كاتباً زائراً - ربما أكون النسخة الأحدث من أعداء المسيح. وقد حاولت أن أركز له على الفرق بين الصحافي والكاتب، لكن قناعاته العقلية بقيت تقول له: إنني «واحد منهم». فيئست من محاولة إقناعه ورحت أحاول البدء بالمقابلة. بدأت بأخذ موافقته أولاً على تسجيل الحديث الذي يدور بيننا.

كان أول شيء أراد أن يقوله لي هو: «إنني أمثل أكثر من خمس وعشرين شركة أمنية، ونمارس عملنا على أساس من الثقة. بعض الشركات تسهم بعشرة آلاف دولار، وبعضها الآخر تدفع بحسب قدرتها». ومع أن هناك خمساً وعشرين شركة تموّل وظيفته، إلا أن بيتر يقول: إنه يوجد عدد يتراوح ما بين ستين إلى مئة شركة تعمل في العراق، وهو يفترض أن تقوم هذه الشركات بالتسجيل لدى وزارة الداخلية العراقية، والحكومة العراقية لا تطلع بيتر على الأرقام الدقيقة؛ لذلك لا يتوافر لديه رقم دقيق معقول لعدد الشركات الأمنية العاملة في العراق.

ومع أنني كنت أستمع إليه باهتمام وإخلاص، إلا أن بيتر كان عدوانياً نزقاً في تعامله، وبقي يوجه إلي اللوم على كل ما لحق الشركات الأمنية الخاصة من تغطية إعلامية سلبية. قوطع حديثنا بدخول أحد زملاء بيتر في العمل، وقد كتمت ضحكي حين بدر من هذين الرجلين المتقدمين في العمر حركات أنثوية ككدم البراجم بدلاً من المصافحة حين الافتراق.

عاد بيتر إلى حاسوبه، واستخرج منه ملف عرض لشرائح «باوربوينت»، وحذرني من الاستشهاد بأسماء الشركات الواردة في العرض، وحين نظر إليّ لاحظ وجود المسجل الرقمي من نوع «آي بود» الذي كان موضوعاً على سطح مكتبه منذ بداية اللقاء، فصاح قائلاً وقد تمالكه الذعر: «هل أنت تسجل ما أقول؟!» فذكرته ببداية الحديث الذي جرى

بيننا في أول اللقاء حين سألته إن كان لا يمانع من تسجيل الحوار، غير أنه رفض بعناد أن يتابع اللقاء إلا إذا أوقفت آلة التسجيل. فقلت له: إن تسجيل الحوار هو ممارسة جيدة تمكنني من المضاهاة بين ما أكتبه وما هو مسجل في الشريط، زيادة في التوثق من صحة ما أكتب، وإذا ما نشأ خلاف حول ما أنقله عنه من كلام، فإنه يستطيع المقارنة بنفسه بين ما كتبت وما جاء في الشريط.

مع ذلك، لم يكن بيتر مرتاحاً للفكرة، ولكنه على الأقل هدأ قليلاً ليتم الحديث: «لقد خالفنا كثيراً من النماذج القائمة. لقد عهدنا إلى شركات خاصة بمهمة القيام بالعمليات الدفاعية التي لا يتطلب القيام بها وجود وحدات عسكرية. فنحن لا نحتاج إلى الجيش لنقل الأشخاص من مكان إلى آخر، ولسنا بحاجة إلى الجيش لتأمين نقل الإمدادات.... إننا نقوم حصرًا بالدفاع عن الموظفين، والمنشآت، وحماية حركة الإمدادات والنقل. لا نعتقد أننا بحاجة إلى جنود لحماية الأشخاص. دع الجنود يتولوا مهمة قتل الناس، والتعامل بعنف مع عدونا».

«لا توجد شركة أمنية خاصة واحدة في العراق تقوم بعمليات هجومية. وقد قرأت في وسائل الإعلام بأن هذه الشركات هي التي تقوم بالعمليات الحربية، وهذا محض هراء». وهنا وجد بيتر فرصة ثانية للتهجم على وسائل الإعلام، فسألته هل لديه أرقام حقيقية حول عدد المتعاقدين الأمنيين الذين يعملون في العراق الآن.

فبدأ يسرد أرقاماً شبه رسمية من عنده، وقدّر بأن هناك زهاء ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف أمريكي يعملون في الحقل الأمني الخاص، وقرابة سبعة آلاف إلى عشرة آلاف من رعايا دول مثل جنوب إفريقية، وبريطانية، وخمسة عشر إلى عشرين ألفاً من رعايا دول العالم الثالث - من دول مثل فيجي، ونيبال، والفلبين، والسلفادور - وخمسة وعشرين إلى ثلاثين ألف عراقي. واعترف بيتر بأنه أسس هذه الأرقام على معلومات شفوية: لأن وزارة الداخلية العراقية لا تزوده بالإحصاءات، هذا على فرض أن مثل هذه الإحصاءات موجودة فعلاً. وهنا، أعادت هذه الفكرة بيتر إلى الوضع الدفاعي مرة أخرى: «يظن بعض الناس أننا نعمل في دولة تسير فيها الأمور بطريقة نظيفة وسلسة. إنك تجد أن الوزراء العراقيين يستخدمون

حسابات بريد إلكتروني من مواقع هوميل وياهو! ويظن الناس أننا بلمسة سحرية يمكننا حل كل المشكلات وجعل الأمور تسير كالساعة!» وكان جلوسي بهدوء وأنا أستمع إليه يزيد من حدة انفعاله، ثم صرّ أسنانه وعاد إلى استعراض شرائح الباوربوينت.

تضمنت الشريحة اللاحقة أرقاماً وإحصاءات حول المتعاقدين الأمني العادي. وبحسب تقديرات بيتر، فإن المتعاقدين الأمني العامل في العراق هو في بداية الأربعين من العمر بحساب متوسط عام، ولديه خبرة عملية في الجيش تتجاوز العشرين عاماً بما فيها الخدمة في عدد من الدول خارج بلده الأصلي. ويؤكد بيتر أن «مجرد خلع الجندي لباسه الرسمي الموحد في الجيش لا يعني أنه يخلع معه أخلاقه المهنية».

ثم غطى بيتر الشريحة اللاحقة على شاشة حاسوبه بقطعة من الورق وسألني عن رأيي الشخصي في المتعاقدين الأمنيين. فقلت له: يبدو لي أن الأمريكيين منهم أشخاص طيبون على العموم، أكثرهم جنود سابقون في المارينز، أو أفراد أمن في بلدات صغيرة، ومن بينهم قلة يتمتعون بخبرة طويلة في العمليات الخاصة. فنظر إلي نظرة ريبة وشك، وقال بنبرة الممتعض: «لا، قل لي رأيك الحقيقي». فأعدت عليه ما قلته. فأزاح بطريقة تتم على الغصب الورقة التي كانت تغطي الشاشة وظهرت الشريحة التي تقول: «رعاة بقر طائشون، يتقاضون أجوراً أعلى كثيراً مما يستحقون».

ثم مال بجسمه إلى الأمام وقال بنبرة مستعرة وهو يحلق في عيني: «انظر، إننا لسنا ملائكة نرقص على رأس إبرة! فقل لي الآن هل سبق لك أن شاهدت هذه العبارة من قبل؟» فأجبت لا، وهي إجابة أثار فيه عاصفة من الشتائم الشنيعة، وصرخ بصوت غاضب: «إنني أتوقع أن ألتقي منك معلومات إن كنت سأقدم لك معلومات!» وعندها بدأت أفكر بصمت حول الفهم الضيق للحقيقة لدى السيد بيتر. ومن حسن الحظ أن أحد الجنود جاء ليناقدش مع بيتر موضوع ألوان العلامة المميزة التي سيحملها المتعاقدون الأمنيون شيئاً آخر له علاقة «بإجراءات سياسة الأوسمة والأوشحة الخاصة بالمتعاقدين الأمنيين».

ويبدو أن هذا التبادل البيروقراطي كان له أثر ملطف في مزاج بيتر، فعدنا إلى نقاش أكثر عقلانية حول الانطباع العام عن المتعاقدين الأمنيين. ويلوم بيتر وسائل الإعلام

على عدم فهمها لهذه الصناعة وعلى تركيزها على بعض الأمثلة الشاذة وتقديمها للناس على أنها تمثل العاملين في هذا القطاع. «من هم الأشخاص السيئون. هل يجري جلبهم إلى هذا القطاع بنية سيئة؟ ألا يوجد هناك محامون، وقساوسة، وصحافيون لا يلتزمون بالقواعد الأخلاقية في مهنتهم؟ أم أنهم جميعاً وصلوا درجة الكمال؟» وتحول مزاج بيتر إلى غفران مقدس يبرئ ذنوب القلة بالتضحية بالكثرة.

«إن المتعاقدين الأمنيين يؤدون واجبهم بالحد الأدنى من السلاح، ويناضلون في وجه أقسى الصعوبات. لقد وجهت دعوة إلى بيتر سينغر [زميل معهد بروكينز، مؤلف كتاب «عساكر الشركات»] للإقامة هنا شهراً واحداً. إن الأساتذة الناقدين يحبون طعننا بالرمح، نحن لدينا تعليمات وأنظمة متبعة! إن قرار سلطة التحالف المؤقتة رقم 17 يقول: إن ثمة قانوناً يطبق هنا!»

كان واضحاً لي وأنا أغادر حجيرة بيتر الخشبية أنه لا يخرج عن نطاق المنطقة الخضراء، ولا يخالط المتعاقدين الأمنيين كثيراً. ولو فعل ذلك لأدرك أن المذكرة -17- وهي الوثيقة الصادرة عن سلطة التحالف المؤقتة التي منحت المتعاقدين الأمنيين حصانة قانونية، تحول دون ملاحقة السلطات العراقية لهم، وتضعهم خارج نطاق اختصاص المحاكم العراقية- هي أبعد ما تكون عن تقييد حركة المتعاقدين الأمنيين وتصرفاتهم.

في صبيحة أحد الأيام استيقظت لأجد عشرة من المتعاقدين يحاولون بكل جهدهم نقل البث التلفزيوني من مستقبل إشارة القمر الصناعي إلى مسلاط العرض الضوئي على الشاشة الكبيرة في غرفة الاجتماعات. كان ذلك اليوم يصادف عيد الشكر في الولايات المتحدة، وكانوا يرغبون في مشاهدة لعبة كرة القدم الأمريكية على الشاشة الكبيرة، وكان من المقرر أن يصل طرد من شرائح اللحم البقري الطري على متن طائرة قادمة من عمان. ولا يرغب فريق المبة في التأخر؛ لأن البديل الوحيد لعشاء عيد الشكر سيكون وجبة لحم الديك الرومي المصنع، وبعض الطعام الرديء الذي تقدمه شركة كيلوغ براون آند روت في قفطير القصر.

توجهنا إلى المطار، وكان الحديث عن شرائح «الستيك» بين أعضاء الفريق يخفف من مشقة مراقبة أمارات الهجمات المحتملة. وكانت الرحلة خالية من أي عقبات على

الدرب الآيرلندي. وحين دخلنا من بوابة المطار متوجهين إلى موقف السيارات، لاحظنا وجود سيارة تتبعنا، ثم أوقف السائق سيارته على مسافة آمنة من المكان الذي أوقفنا فيه عرباتنا، ثم نزل منها شخص عراقي، وبدأ يصرخ علينا بالعربية. وكان يلوح في الهواء ببطاقة العاملين في المطار، وكان يحاول الظهور بمظهر أقل تهديداً بالابتسام في طيات غضبه وهو يقترب منا، ويحاول التحدث بلغة إنجليزية ركيكة. وبدأ الرجل حانقاً، ومثيراً للضحك، ولكنه غير مخيف.

عرف أحد المتعاقدين سيارته وقال: «هيه، لقد كان هذا الرجل يسوق سيارته قريباً منا، فأطلقت باتجاهه رصاصة تحذيرية». ولما كان هذا العراقي يحمل تصريحاً أمنياً يخوله دخول المطار، حيث يخالط الأمريكيين يومياً، فإنه يظهر أنه لم يكن يدرك أن عليه أن يبقى بعيداً عن القافلة ولا يقترب منها. وحين شعر بالرصاصة التحذيرية التي أطلقت باتجاهه راح يقترب من مؤخرة القافلة أكثر؛ لكي يري فريق المبة بطاقة عمله في المطار التي كانت تتدلى من المرأة الوسطى في سيارته، وهذه الخطوة هي غلطة بريئة كادت تؤدي بحياته.

وربما ظهرت هذه الحادثة بوصفها مثلاً على قيام المتعاقدين الأمنيين بتهديد وترويع المدنيين العراقيين، إلا أن قواعد الاشتباك المتبعة قد عملت بحسب ما هو منشود منها في هذه الحالة. وتقضي تعليمات وزارة الخارجية في الأوضاع التي تشبه هذه الواقعة، حين يلاحظ الفريق الأمني وجود سيارة مسرعة باتجاهه وتقترب منه، بأن على المتعاقد الأمني أن يحذر السيارة بصوت عالٍ ويشير إليها بيده بعدم الاقتراب. فإذا استمرت السيارة بالاقتراب، فعليه أن يوجه رصاصة تحذيرية إلى محرك السيارة أو العجلات. وإذا تحتم على المتعاقد الأمني إطلاق النار ثانية، فعليه أن يوجه وابلأ من الرصاص إلى السيارة القادمة بحيث يقتل من فيها ويوقفها تماماً. واعتماداً على سرعة السيارة القادمة، فإن ثواني معدودة فقط تفصل بين الإشارة باليد والرصاصة القاتلة في الرأس.

(...) فبعد كل هذه المشقة، تبين أن شرائح الستيك لم تصل المطار لسبب أو لآخر، وكان علينا أن نعود إلى مقرنا متجشمين المخاطر والصعاب صفر اليدين من الطرد النفيس.

استولت خيبة الأمل على بعض المتعاقدين وبلغت منهم حدًّا جعلهم يصرفون النظر عن الطعام كلية، وتوجهوا إلى الصالة الرياضية لتبديد إرهاق رحلة المطار بالتمارين الرياضية. أما البقية فقد بلغوا حدًّا من الجوع جعلهم يقبلون بالطعام الرديء الذي يقدم في المقصف الذي تديره شركة كيلوغ، براون، ورووت، فتوجهوا إلى قاعة الطعام في مبنى القصر الرئيس. لزمّت الفتيات العراقيات اللاتي كن يقمن بتدبير المنزل الذي يقيم فيه فريق الممبة بيوتهن بسبب حظر التجول الذي فرض على المدينة، لذلك كان على المتعاقدين أن يعتمدوا على أنفسهم في تجهيز العشاء. ولولا المتعاقدون الأمنيون الذين يقومون بالمهام العادية من طبخ، وغسل للملابس، وتنظيف الحمامات، لعاش الجيش والمتعاقدون الأمنيون الآخرون في مجاعة وقذارة.

ركبت أنا، وباز، وغاي، وريك في سيارة نيسان صغيرة مصفحة وتوجهنا صوب المقصف. في الليل يخيم على المنطقة الخضراء شعور غريب مخيف، ويجعل الغبار الكثيف من ضوء السيارات تبدو كأنها أعمدة صلبة، ويبدو أن صوت حركة الدبابات والشاحنات يكون دوماً عند حافة الحد الذي يتلاشى عنده الضوء. ولا يمكن مشاهدة الدبابات والعربات العسكرية التي تصدر عنها هذه القعقة التي تلاحق المرء دون توقف إلا إذا أضاءت مصابيحها الأمامية الكاشفة. وبعد أن اجتزنا عدداً من التقاطعات المرورية، وصلنا إلى موقف ضخم للسيارات يعج بالسيارات الرباعية الدفع، فأوقفنا السيارة فيه ونزلنا قاصدين القفطير. ولا يحتاج الأمر سوى إبراز بطاقة الهوية الشخصية؛ لكي يعبر البوابة التي يقوم بحراستها جنود من الغورخا يعملون مع شركة غلوبال سيكيورتي. أشار غاي بيده إلى صفوف السيارات المتسخة والمغبرة، وقال لي: إن اتساخ السيارة أصبح علامة يميز بها رجال المقاومة السيارات التي يقودها الأمريكيون من غيرها: لأن الأمريكيين لا يغسلون سياراتهم، وقال غاي: «إن العراقيين لا يسوقون سيارات متسخة».

وعلى طول الممر المتصدع المحاط بالأسلاك الشائكة، تتابعت جموع من الجنود النظاميين والمتعاقدين العسكريين الذين كانوا يتبادلون الحديث مع جموع من المتعاقدين المدنيين الذين يلبسون الخوذات ويسحبون خلفهم حقائب عمل جلدية. وفي هذه الأيام

أصبح يتحتم على المتعاقدين المدنيين لبس خوذات ودروع واقية من الرصاص داخل المنطقة الخضراء بسبب هجمات الهاون، ولكنهم لا يحملون معهم سلاحاً. ومع ذلك، تخيلت أمامي حين رأيتهم يسيرون في العتمة وأكتافهم منحنية من التعب، جيشاً من المرتزقة البيروقراطيين يحملون بأيديهم حقائب «السمسونايت».

وعلى مقربة من المدخل المؤدي إلى القصر، وقف بعض المتعاقدين الأمنيين والموظفين الحكوميين للتدخين كما كانوا يفعلون في المباني المكتبية التي تحظر التدخين في الولايات المتحدة. وتبدو المنطقة الخضراء من الناحية الفعلية كأنها نموذج مصغر من الولايات المتحدة في جزيرة محصنة تطبق فيها القواعد والأعراف الأمريكية وسط بحر متلاطم من الفوضى. وبتشبيه أدق، يمكن القول: إن هذا التصميم المعماري الباذخ لقصر صدام حسين هو أقرب إلى جناح عراقي في مركز إيكوت¹، هذا إن استطاعت شركة ديزني أن تضع خلفية تطابق أصوات المدافع ونيران المدفعية في خلفية المشهد.

وتستمر المؤثرات فوق الواقعية داخل القصر. قاعة مركزية كبيرة تحيط بها جدران ذات أقواس، وتعلوها قبة رائعة عالية تهيم على المدخل، صممها صدام حسين لكي تثير في نفس الزائر حالة من الرهبة والدراما التي يجدها المرء حين يدخل مبنى الفاتيكان أو غيره من المباني العامة المشهورة. وكان يقف على الأرضية الرخامية أسفل القبة صفوف من الجنود بزيهم العسكري الشاحب، والشبان المتطوعين، والموظفين الحكوميين ذوي الكروش في انتظار دورهم لتناول ما تعرضه الكافتيريا من طعام العشاء. وتسجيل الاسم في قائمة المتعاقدين يعني أن بيان حساب وجبة العشاء سترسل إلى شركة بلاك ووتر بقيمة 27 دولاراً للشخص الواحد. كان يقدم الطعام طاقم من الطهاة الفلبينيين البشوشين، ويؤتى بأكثر الطعام من الولايات المتحدة، ويمكنك مشاهدة العلامات التجارية لأكثر المنتجات الأمريكية الرائجة التي قطعت نصف الكرة الأرضية لتصل إلى المنطقة الخضراء، بل إن

1- مركز ترفيهي أنشأته شركة ولت ديزني قرب مدينة أورلاندو بولاية فلوريدا، بالإنجليزية EPCOT، وهذه الكلمة هي اختصار لعبارة (Experimental Prototype Community of the Future)، أي النموذج التجريبي للمجتمع في المستقبل، ويتكون من قسمين: يعرض القسم الأول تسلسل التطور التقني وتوقعات المستقبل، ويعرض الآخر أجنحة تخص نشأة وتطور الولايات المتحدة وثمانية دول أخرى.

أرقام الهواتف في المنطقة الخضراء تستخدم رمز اتصال أمريكي محلي.

تجمع قاعة الطعام هذه خليطاً عجيباً من الناس: جنوداً بزيهم الكاكي ورؤوسهم الحليقة، ومدنيين بتسريحات شعر طويلة، وفتية من الحزب الجمهوري، ومتعاقدين أمنيين يلبسون قمصاناً قصيرة الأكمام ونظارات شمسية. وقد جاء هؤلاء الأمريكيون من كل طيف ونوع إلى العراق لأسبابهم الخاصة؛ بعضهم جاء لدوافع وطنية وأداء الواجب القومي. وأكثر المدنيين -إن لم نقل كلهم- جاؤوا؛ لأنهم سيحصلون من العمل في العراق على أجور لا يمكنهم تحصيل مثلها من العمل في الولايات المتحدة.

وفي هذه القاعة المكتظة، شققنا طريقنا نحو منضدة كبيرة مستديرة هي من مخلفات عهد صدام. لَوَّح غاي بيده ليجلب انتباه المتعاقدين الأمنيين الآخرين الذين كانوا يحملون سلاحهم إلى جانب صينية الطعام. ويمكن تمييز الأشخاص الذين يلبسون الملابس المدنية بسهولة من بين الجموع. وجاء شاب في العشرينيات من عمره، ذو شعر طويل، يلبس نظارات شمسية، وقميصاً مزرعياً ينم على ذوق سقيم، شخص من جيل الهيبز يبدو في غير مكانه هنا، وكان يحمل معه كاميرا كبيرة، جاء ليشاركنا الجلوس حول المائدة. كان هذا الشخص من أعوان الحزب الجمهوري في الكونغرس، جاء إلى العمل هنا لمساعدة سلطة التحالف المؤقتة. بدأ هذا الشخص من فوره بالحديث والتعريف بنفسه قائلاً: «كنت أعمل معاوناً برلمانياً في ميامي في مجال اختلاق الأرقام لكسب العيش. انتدبت للعمل هنا، وجئت للعمل في وظيفة ليس لها وجود. وقد سبق لي أن عملت في وظائف لا أعرف عنها شيئاً. والآن أقوم بأعمال المحاسبة. إنني أكره المحاسبة، وأكره الأرقام».

وقال عن نفسه: إنه ينحدر من نيويورك، وهو ما أثار انتباه أحد المتعاقدين الأمنيين الذين يعملون في بلاك ووتر، حيث عمل هذا المتعاقد في السابق شرطياً في مدينة نيويورك، فقال له: «هيه، لا تقل للناس إنك من نيويورك، بل قل لهم: إنك من الولاية التي تسكن فيها؛ لأنك تسيء إلى سمعة سكان نيويورك». ثم اعتذر المتعاقد الذي يتحدث بلهجة سكان بروكلين من نيويورك، وفسّر نزقه وسرعة غضبه التي بدت في حديثه بأن راح يسرد الصعوبات التي واجهها في إرسال جثث زملائه القتلى من المتعاقدين الأمنيين من

بلاك ووتر إلى ذويهم؛ إذ دفعته تلك التجربة إلى النقمة على الموظفين البيروقراطيين في المنطقة الخضراء: «كنا نحاول إرسال مواطن أمريكي مع جثة أخيه في الطائرة المتوجهة إلى الولايات المتحدة، لكن السلطة وضعت أمامنا من العراقيل والعقبات ما لا يمكن اجتيازه. فحين يموت أحد من موظفي الحكومة، تسدى إليه معاملة خاصة وتعد له ترتيبات خاصة، أما حين يموت واحد منا، فلسنا سوى «حراس أمن».

لا يوجد «أبطال» في عالم الأمن الخاص، بل عاملون لقوا حتفهم ليضافوا إلى إحصائيات وأعداد الموظفين في الشركة التي توظفهم. وقال مايك: إن بلاك ووتر تحاول جهداً الاعتناء بموظفيها، لكن ذلك يتطلب موازنة دقيقة؛ لأن كل متعاقد يعمل مع الشركة يعي جيداً حين يوقع على عقد عمله المخاطر المصاحبة لهذا العمل، ويعلم أن الشركة غير ملتزمة بأي تعويضات مالية بعد الموت عدا التأمين الأساس الذي يفرضه قانون التأمين الأساس للدفاع. ولعل هذا يقدم لنا بكل وضوح وقسوة أن الجانب التجاري من الحرب يتطلب التعامل على طريقة المرتزقة. ليس ثمة عقيدة في عالم الأمن الخاص، ولا وطن، ولا عَلم. ليس لهذا العالم رب يقاتل في سبيله ولا بلد يقاتل من أجله. بل كل ما هناك هو شيك أجر العمل. وحين يموت المتعاقد الأمني دفاعاً عن شيك أجر العمل، تقوم الشركة التي كان يعمل فيها بإرسال آخر شيك إلى ذويه، وعادة ما تحسب قيمته حتى آخر ساعة مات فيها، مرفقاً بصندوق يحتوي على مقتنياته الخاصة. وفيما عدا ذلك، لا تتحمل الشركة التي يعمل فيها المتعاقد ولا الحكومة الأمريكية أي مسؤولية قانونية تجاه أسرته.

ولا يتطلب موت المتعاقد الأمني أي ترتيبات رسمية باستثناء إرسال جثته أو بقايا أشلائه إلى ذويه، وملء نماذج خاصة لغايات التأمين، ومع ذلك، سافر مايك رش بنفسه إلى هاواي لإخبار زوج ويز باتالونا بوفاة زوجها [في حادثة الفلوجة]. «إننا ننظر إلى هؤلاء الأشخاص بوصفهم أخوة لنا من أسرة واحدة، ونقدم لهم كل ما يمكننا تقديمه».

انتهى العشاء بهذا الحديث الكئيب، وقفلنا عائدين إلى المنزل. وعند آخر نقطة تفتيش أمريكية قبل وصولنا المنزل، سُلِّط علينا ضوء ساطع كثيف حوّل زجاج السيارة المتسخ

إلى سطح أبيض لامع. كان علينا الانتظار إلى أن يشار إلينا بالتحرك إلى الأمام، ولكن كان من المستحيل رؤية عناصر المارينز الواقفين على البوابة. وقال لي مايك: «أتظنهم سيزودون هؤلاء الأشخاص بمصاييح يدوية؟»

أنزل مايك زجاج نافذة السيارة، وتقدم إلى الأمام ليبرز بطاقة هويته ويتحدث إلى الجنود الذين يحرسون نقطة التفتيش: «كيف حالكم الليلة؟» وبصوت بدت فيه بوضوح نبرة الإعجاب والرهبة، سأل الشاب من المارينز: «هل أنتم من بلاك ووتر؟»

ورد مايك بصوت هادئ مثير للإعجاب: «هل كل شيء على ما يرام؟» جمع جندي المارينز كتفيه من البرد، وتشكلت غيوم بيضاء صغيرة من أنفاسه أمام وجهه، وقال: «في أحسن حال، سيدي».

في تلك الليلة الباردة، كان الخوف والتعب يظهر على وجوه المارينز الذين يحرسون البوابة. وينظر هؤلاء المارينز إلى المتعاقدين الذين يعملون في بلاك ووتر بوصفهم نجوم الحرب، فسأل أحدهم: «هل يمكننا التوقف في مقركم لأخذ بعض قبعات الشركة؟» فرد عليه غاي: «بكل تأكيد».

وقال لي غاي بعد استئناف المسير: «إن هؤلاء الفتية يقفون على خط النار الأول؛ لذلك أحرص دوماً على التوقف والسؤال عنهم. وحين يحدث تفجير انتحاري، فإن أول هدف لهم هو هذه البوابة».

على الرغم من كل المساوئ المصاحبة لعمل المتعاقدين الأمني، إلا أن المتعاقدين الأمنيين الأمريكيين يتربعون على قمة هرم الحرب في العراق، وإن كانوا لا يعترفون بذلك. فهم يحصلون على أعلى الأجور، ومع أن المقاومة قد تستهدفهم بهجمات في أثناء عملهم، إلا أن المتعاقدين الأمنيين لا يسيرون في أزقة معتمة، ولا يقتحمون الأبواب، ولا يمضون السنة بكاملها بعيداً عن أسرهم. وهذا المارينز الشاب الذي يحرس البوابة ستصيبه في الغد رصاصة قناص، وسيعود آخرون إلى وطنهم ليواجهوا حياة زوجية متعثرة،

وديوناً متراكمة، وحساباً مصرفياً خالياً من النقود. في حين يعلم المتعاقدون الأمليون أن باستطاعتهم التحول من وظيفة إلى أخرى، وأن يغيروا رأيهم، أو أن يقرروا العودة إلى بلادهم في أي وقت إن أرادوا ذلك. وبخلاف المارينز الذين يرتجفون من البرد على البوابة 12، ويحصون الدقائق المتبقية لانقضاء الليل وبزوغ الفجر، يدرك المجربون أن الحرب هي على درجة من البشاعة والخطر بما لا يسمح للمرء أن يدخل فيها بأجر زهيد. وكما قال لي ريك في طريق عودتنا إلى المنزل: «كل الناس هنا يكسبون أجراً قدره ألف دولار في اليوم باستثناء الجنود الذين يقاتلون في هذه الحرب». وبالإضافة إلى أجرهم اليومي، يتقاضى المتعاقدون مع بلاك ووتر مبلغ 650 دولار في الأسبوع للمصروف الشخصي. وقد قام غيكو بشراء بندقية آلية من نوع بي إم 5 بسعر 1300 دولار. واشترى تي-بوي سيارة بي أم دبليو مستعملة من الفئة السابعة بمبلغ 5 آلاف دولار. ولم يسبق لبعضهم أن توافر لديه مثل هذا المال طوال حياته. لكن مع الأخذ في الحسبان النقاش الذي دار بينهم قبل قليل حول الموت، فإن هذا العمل من وجهة نظري هو صفقة خاسرة. لكنني أدركت سريعاً أن كل متعاقد له حساباته الخاصة التي يوزن بها مخاطر وفوائد وظيفته.

كان صباح اليوم اللاحق شديد البرودة لدرجة أن مولدات الكهرباء كانت بحاجة إلى دفعة كهربائية من بطارية السيارة لكي تعمل. وبعد حل تلك المشكلة، مكث ريك، مدير الإمدادات، في الخارج، (...) فجلست للتحديث إليه وأصبحت تلك عادة يومية كل صباح. وحين أخذ نفساً من تلك اللفافة، قام ريك من دون شعور بفرك العلامة الكبيرة التي بقيت على عنقه في موقع العقد اللمفية التي استؤصلت بعد تشخيصها بالسرطان قبل عدة سنوات. وعلى نحو غير واف اقترحت عليه أن يفكر في يوم من الأيام بترك التدخين مراعاة لصحته، فأثار كلامي منه هذا الرد: «آه، أتريد أن تسمع قصة محزنة؟» ومن الواضح أن ريك كان قد توقف عن التدخين بعض الوقت بعد اكتشاف إصابته بالسرطان، ولكنه عاد إليه بعد حين لم يعد قادراً على مواجهة التوتر الناتج عن خلافه مع ابنته. قال لي: «لقد وفرت لها كل ما تحتاجه، ولكنني وصلت إلى مرحلة لم أعد قادراً فيها على الاستمرار. فكان علي أن أضع حداً. فقلت لها: «ليس لدي مزيد من المال؛ عليك أن

تدبري أمورك بنفسك». فقالت لي: إنها تكرهني؛ فعدت بعدها إلى التدخين». ويبدو أن هذا الشقاق أثر عليه كثيراً، ولكنه لا يعتقد أن هناك طريقة ما لحل الخلاف. وسألته إن كان لديه قلق من إصابته بالسرطان ثانية؟ هز ريك رأسه، وقال: «لا بد أننا جميعاً سنواجه الموت في يوم من الأيام». ويتطوع ريك عادة بقيادة شاحنة البونغو غير المصفحة وبطيئة الحركة.

في المساء، وبينما كنت جالساً في غرفة التلفاز أدون بعض الملاحظات وأكتب بعض الأفكار، سمعت أصواتاً مرتفعة لمحركات السيارات، تطفئ عليها أصوات صاخبة لنغمات قيثارة. توجهت إلى خارج المنزل لأرى غيمة من الغبار الكثيف فوق أسوار المجمع قادمة من جهة الشارع. لقد وصل فريق الحلة التابع لبلال ووتر.

أوقف فريق الحلة سياراتهم المكونة من ثلاث سيارات مصفحة من طراز جي إم سي سوبربان إضافة إلى حافلة غير مصفحة في الأصل - ولكن المتعاقدين صفحوها بطريقتهم الخاصة - يطلق عليها «حافلة الكراهية». وهذه التسمية الاصطلاحية الرسمية لحافلة الكراهية كناية عن الفريق المضاد للهجمات؛ لأن هذه الحافلة تبقى متأخرة عن باقي العربات. وحين تقع القافلة في كمين ما، تسارع حافلة الكراهية بمشاغلة المهاجمين وإطلاق النار عليهم ريثما ينجح الباقون في الانسحاب. وفي داخل هذه الحافلة ثبتت صفائح معدنية صدئة على الأبواب جاعلة منها سيارة مصفحة رخيصة لكنها فاعلة. ويحرض الفريق على الإبقاء على سيارات السوبربان الأخرى نظيفة أنيقة لغايات نقل الشخصيات المهمة، ولكن يبدو أنهم ضمدوا الصفائح المعدنية في حافلة الكراهية بشريط لاصق فضي اللون. ويغطي غبار الشوارع السيارة من الداخل والخارج، ويبقي الرماة المهرة على الباب الخلفي مفتوحاً، وهذا من شأنه أن يجلب مزيداً من الرمال والغبار إلى مؤخرة السيارة فيغطي كل شيء بمسحوق ناعم بني اللون. دعاني متعاقد يطلق عليه لقب «ترنك مونكي» (أي قرد صندوق الحافلة الخلفي)، وهو جندي سابق من قوات سيل، أشقر الشعر ضامر الجسم، إلى معاينة الحافلة. وفي مؤخرة تلك الحافلة، يركب صديقنا في صندوق حديدي من صنع يدوي، وتتدلى من السقف أسلحة متنوعة: مسدس لإطلاق النار على الأهداف القريبة جداً، وبندقية رشاشة للأهداف البعيدة.

وعلى العكس من سيارة السوبربان الأنيقة المزودة بمكيف لتبريد الهواء، تنبعث الكراهية من الجمجمة البلاستيكية المثبتة على لوحة عدادات السيارة، إلى أطراف الألواح المعدنية الصدئة من هذه السيارة المصفحة يدوياً، إلى موسيقا الروك الصاخبة في هذه الحافلة المشوهة.

ترجّل أعضاء فريق الحلة عن خيولهم الحديدية، وراحوا يتبخثرون أمام المنزل لتحريك الدماء في أرجلهم بعد الرحلة الطويلة من مدينة الحلة. لقد كانوا متعبين ومتسخين، ولديهم بعض الوقت لإضاعته قبل التوجه إلى المطار لنقل فريق جديد من مطار بغداد الدولي. ومع أنه كان لديهم فسحة من الوقت للاستراحة، إلا أن فريق الحلة لم يقطعوا يقظتهم لحظة واحدة، وآثروا الوقوف والمراقبة، ولم يتعدوا كثيراً عن عرباتهم. وسينضم فريق الممبة إلى فريق الحلة في الرحلة إلى المطار في قافلة واحدة، لكن هذه الفكرة لم ترق لأعضاء فريق الحلة. وقال متعاقد ملتج من فريق الحلة مازحاً «هل سنسير مع فريق الممبة؟ سيقضى علينا إذاً لا محالة!» وهذا التصرف يعكس نوعاً من عدم الريبة التي نجدها شائعة بين أعضاء الفرق الأمنية جميعها في هذا القطاع.

يتألف فريق الممبة في أكثره من عناصر سابقة من قوات المارينز؛ في حين تغلب العناصر السابقة من قوات سيل على فريق الحلة. ومع أن كلا الفريقين يؤديان عملاً واحداً في الشركة نفسها، إلا أن كل فريق ضمن شركة بلاك ووتر يمثل قبيلة مستقلة. وفي بعض الأحيان تتألف فرق الحراسة من عناصر متجانسة من قوات سيل، أو المارينز، أو القوات الخاصة، مما يؤدي إلى تعميق وترسيخ الهوية الجماعية للفريق الواحد. والأشخاص الوحيدون الذين لا ينتقصون من قيمة زملائهم الآخرين في العمل هم المتعاقدون الذين سبق أن خدموا في قوات الشرطة؛ لأنهم ليسوا على تلك الدرجة من الكبرياء والخيلاء. ويتمتع الفريق الواحد بقوة التلاحم والترابط بين أعضائه، وقد يتردد الواحد منهم في الثقة بأي شخص من خارج الحلقة الصغيرة التي ينتمي إليها،

مع الشك دوماً بأن أي أسلوب تتبعه الفرق الأخرى في العمل هو أقل أماناً مما يفعله فريقه.

بدأت بالتقاط الصور الفوتوغرافية خارج المنزل حين تهيأ الجميع للانطلاق. وقبل أن ينضم رامي المؤخرة إلى مجموعته ليظهر معهم في الصورة، نزع قطعة من شريط أسود ليغطي بها عينيه، فقال أحدهم مازحاً: «هيه، أليست تضاف هذه فيما بعد؟» وصاح آخر مقترحاً صيغة التعليق الذي يجب أن يوضع أسفل الصورة: «الجنود المرتزقة في العراق». ثم جاءني متعاقد قصير مكتنز الجثة، يحمل عتاداً ثقيلاً، متقوس الساقين كرهاة البقر، وقال لي بعد أن تقل ما كان يمضغه من تبغ بني: «لدي خبرة عشرين عاماً في قوات المارينز، ولست أدري إن كان هناك ما يمكنني فعله. اللعنة، بل إنني لا أعرف إن كنت سأحسن فعل شيء آخر غير هذا!» ثم ركب المتعاقدون في عربات القافلة، وتفقدوا العتاد وأجهزة الاتصال، واختفوا وسط غمامة من الغبار وصخب موسيقا المتاليكا.

وبعد عدة ساعات، في أثناء عودتهم من المطار، تعرض فريق الحلة لكمين نفذته مجموعة من حافلات المقاومة التي ظهرت فجأة وبدأ ركابها بإمطار سيارات السوبربان برصاص بنادقهم الرشاشة. ويبدو أن المقاومة لم تلحظ حافلة الكراهية بموسيقاها الصاخبة وطلسم الجمجمة المنصوبة على مقدمتها، وهي تتجه بسرعة نحوهم من الخلف. أخرج رامي المؤخرة رشاشه الأوتوماتيكي وأمطر حافلات المقاومة بوابل مستمر من الرصاص محدثاً ثقباً فيها، فقتل منهم واحداً وأجبر الباقين على الفرار وفك الاشتباك. ومع فرار المقاومة وتفرق عناصرها في كل اتجاه، كان أمام فريق المتعاقدين أن يتخذوا قراراً في أقل من ثانية بمواصلة القتال وتعقب العناصر الفارة أو بالانسحاب من المكان، ولكنهم اختاروا الانسحاب. وأبدى رامي المؤخرة ذو الشعر الأشقر غضبه؛ لأنه كان يتمنى لو سمح له بإنهاء المهمة بقتل بقية عناصر المقاومة، ولا سيما بعد أن علموا فيما بعد أن المقاومة عادت إلى مكان الحادث واستخدموا جثة الشخص الذي قتل في نصب فخ للجيش الأمريكي. ونتج عن هذا الفخ قتل أحد عناصر قوات المارينز التي جاءت لتفقد موقع الحادث حين حركوا جثة القتيل.

مغادرة العراق

بعد عدة أيام، خرجت مع فريق الممبة إلى المطار في رحلة لا عودة فيها. فقد انتهى الشهر، وحن وقت العودة إلى الوطن. وفي هذه الرحلة الأخيرة على الطريق الآيرلندي كانت المشاهد المعهودة من الحفر السوداء المملوءة بالحجارة والسيارات المتفحمة على جانبي الطريق لا تزال على حالها. وأصبح من السهل الآن تمييز المريب من العادي. ودعت أعضاء الفريق في قاعة استقبال الطائرات القادمة، وتمنوا جميعهم لي التوفيق. لقد استمتعت في الوقت الذي قضيته مع فريق الممبة، وهو وقت كنت فيه مصدراً احتياطياً للرصاص، وسامعاً لاعتراقات آخر الليل، ومستشاراً. بعض هؤلاء الأشخاص سيتبدلون بعد شهر، وعلى الرغم من حدة العنف الموجود هنا، إلا أنني أعتقد أن مياغي ونظرتة الشرطة الجادة لهذه الوظيفة ستبقيهم في أمان.

وبعد آخر تلويح وداع باليد، توجهت إلى الداخل لأقابل طاقم طائرة كاسا 212 التابعة لشركة بلاك ووتر، وهي طائرة صغيرة خاصة تنقل المتعاقدين من العراق وإليه. وعلى النقيض من طائرات الملكية الأردنية التي تستخدم طائرات فوكر ذات الحجرة المضغوطة (المفرغة من الهواء) والمحركين النفاثين، يتسم السفر على متن طائرات كاسا بطول الوقت الذي تستغرقه الرحلة، وبالضوضاء، والبرد القارس فوق صحراء ممتدة تخلو من أي تضاريس مميزة.

وتتشابه الإجراءات المتبعة في مطار بغداد الدولي التي تسبق الدخول إلى الطائرة مثيلاتها في الولايات المتحدة؛ إذ قامت فتيات عراقيات بتفتيش حقائبنا بعناية متجاهلات أي شيء متوارٍ عن الأنظار. وعلى بوابة التفتيش، رجل أمريكي أصلع متقدم في السن قد سرح ما بقي من شعر في رأسه فوق صلته لإخفائها بطريقة رديئة، قام بتفتيشنا بتحسس لأجسامنا لم يكن له داع - وأقول لم يكن له داع ولا سيما بعد أن أخبره أحد أفراد طاقم الطائرة بأنه يحمل مسدساً عيار 9 ملم من نوع غلوك - ولكنه خضع للتفتيش على كل حال. ثم قام موظفو أمن المطار، وعلى نحو مشير للسخرية، بتمرير المسدس عبر آلة الكشف التي تعمل بأشعة إكس قبل أن يعيدوا المسدس إلى صاحبه. ولا يسمح لغير طاقم الطائرة بحمل مسدسات إلى الطائرة، وصودرت مدية صغيرة من النوع القابل للطي من أحد

أعضاء فريقنا. وقام موظفو أمن المطار بتسليمها إلى الطيار الذي أعادها إلى المتعاقد أمامهم، وظهرت علامات الاشمئزاز على المتعاقدين المسافرين معنا من هذه المهزلة. إننا جميعاً نعي أن أياماً فقط ستمضي قبل أن يتمكن أحد من تهريب سيارة مرسيدس معبأة بالمتفجرات على متن طائرة دي إتش إل. إن حمل مسدس أو مدية صغيرة تبدو أمراً غير ذي بال، ولا سيما أننا مسافرون على متن طائرة خاصة تابعة لشركة بلاك ووتر.

وفي أثناء سيرنا نحو سلم الطائرة، صاح بنا أحد موظفي أمن المطار طالباً مِنَّا أن نمشي في الممر المحدد بشريط أصفر من الجانبين. وهو إجراء ليس له تفسير منطقي يقبله العقل، ولكن -مرة أخرى- إنه مطار بغداد الدولي.

وبعد أن جلس الركاب جميعاً في مقاعدهم، فتح طاقم الطائرة من شركة بلاك ووتر صندوقاً كبيراً مصنوعاً من الألمنيوم، وقاموا بتوزيع بنادق إم-4 معبأة بالرصاصة على جميع الركاب. وسبب هذا الإجراء هو أنه لو تعرضت هذه الطائرة للسقوط، ونجا منها أحد، فإنهم لن يسمحوا للحادثة أن تمر دون قتال. وزيادة في الحرص على حياتنا في حال تعرض الطائرة إلى الإسقاط، فقد قام قائد الطائرة بتخفيض المنصة الخلفية للطائرة التي تستخدمها العربات في تحميل الطائرة. ولم تقلع طائرة الكاسا كبقية الطائرات باتجاه أفقي متصاعد، بل انطلقت إلى الأعلى كالصاروخ، بعكس الدوران اللولبي الذي تفعله طائرات الملكية الأردنية حين تهبط في المطار. ولا يمكن مشاهدة أي شيء سوى الأرض من الباب الخلفي المفتوح. وبعد أن وصلت الطائرة إلى ارتفاع آمن بتجاوز مدى الصواريخ المضادة للطائرات، أعيدت الأسلحة إلى الصندوق. وقد أثبت هذا الإجراء الذي يبدو مغالاة في الاحتياط تصل إلى درجة الجنون، أنه إجراء أمني مناسب وذلك بعد ثلاثة أشهر إذ أسقطت عناصر المقاومة العراقية إحدى الطائرات المروحية التابعة لشركة بلاك ووتر، وسحبوا الطيار الجريح على الأرض وأطلقوا عليه النار من مسافة قريبة.

بعد أن هبطت بنا الطائرة في الأردن مساء ذلك اليوم، تسببت رصاصة وحيدة وجدت في حقيبة أحد المتعاقدين في تأخير عبورنا حواجز الجمارك الأردنية، ومع أن الأردن شحن آلاف الأطنان من الأسلحة الثقيلة والخفيفة إلى العراق، إلا أنه لا يرغب في أن يعود

إليه أي شيء منها. وقد أخرجنا من تلك الورطة ضابط سابق في المخابرات الأردنية، تمكن من حل المشكلة مع الجمارك في غضون ساعة من الزمن.

تستخدم بلاك ووتر فندقاً عادياً في عمان لإيواء المتعاقدين القادمين من العراق والمغادرين إليه، وكان جستن «شرك» في استقبالنا هناك حين وصلنا إلى الفندق. ومع أن تلك الليلة كانت أول سهرة خارج العمل للمتعاقدين القادمين من العراق منذ ثلاثة أشهر، وآخر سهرة للمتعاقدين المتوجهين إلى العراق الذين سيقون فيها ثلاثة أشهر، إلا أن قاعة البار الرياضي الموجود في الطابق الثامن من الفندق كان يسودها جو قاتم كئيب؛ إذ جلس المتعاقدون العائدون إلى الوطن يفكرون بصمت في آلاف الأمور والأشغال الروتينية التي تحتاج إلى اهتمامهم لدى وصولهم الوطن. في حين كان القادمون يفكرون في المخاطر والمغانم الناجمة عن حصرهم بين المقاومة العراقية والاحتلال الأمريكي. خرج المتعاقدون من قاعة البار في وقت مبكر؛ لكي يجهزوا حقائب سفرهم، ويتصلوا بذويهم، وينالوا قسطاً من النوم قبل اللحاق بطائراتهم التي ستقلع في الصباح الباكر.

وحين استلقيت على السرير، وقبل أن أخلد إلى النوم، رحت أفكر في عشرات الدوريات التي رافقت فيها فريق المبة على الدرب الإيرلندي. لقد تعاقبت عدد من فرق الحراسة الشخصية التابعة لبلاك ووتر بين القدوم والذهاب في الشهر الذي أمضيته في العراق. جاء متعاقدون جدد، وعاد آخرون إلى أوطانهم. وكانت السيارات الملوّنة، وطلقات القناصة، والطرق المغلقة، والطرود المشبوهة وسط الطريق، والسياسة بسرعة عالية على طريق المطار، كل ذلك جزءاً اعتيادياً من العمل اليومي. وأصبح الإيجاز الصباحي الذي كان في وقت من الأوقات مخيفاً ومرعباً، روتيناً مملاً كما ذكرنا ميّاجي في بداية ونهاية كل إيجاز: «يوم جديد، مهمة جديدة». وكانت عودة فريق المبة بسلام إلى مقره من طريق المطار تعني انخفاض احتمالات التعرض للإصابة قبل عودتهم إلى أسرهم. قال لي تي - بوي، قبل مغادرتي العراق: إنه يعتقد أنني كنت فاعلاً حسناً لهم؛ لأنه لم يقتل أحد من الفريق المتعاقد أو يصب بجراح طوال وجودي معهم. ولم أعلم أنه بعد عدة أسابيع من مغادرتي العراق، تعرض فريق المبة لهجوم بعبوة ناسفة أودت بحياة أحد المتعاقدين وإصابة اثنين من فريق المبة بجروح بليغة كان أحدهم ميّاجي.

أما الآن، فإني مرتحل من هنا.